رحلاتنا الكبرى حول العالم

في قلب

باريس .. لندن

للرحالة الدكتور

محمد عبد المنعم فؤاد

مطبعة دار الفكر الحديثة ٤٠ شارع خيرت
ت ٢٠١٤٠

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

obeikandl.com

فى طريقى إلى مرسيليا

بالقاهرة

كان يوم السبت ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢٩ تاريخا حاسما ويوماً مشهوداً فى سجل حياتى وتاريخ ذكرياتى زال عنى فيه كابوس ثقيل كان يضايقنى . كان أفق الحياة ضيقا أمام عينى لا يتعدى الطريق من البيت إلى كلية الهندسة صباحا ومساء لا أكاد التعداه أو اختلف عنه عدا ما كنا نعانيه من حريات مكبوته ونظم ودراسات بالية عتيقة لانكاد نفقه منها إلا القليل ليس لها مراجع يرجع اليها أو يوثق بها وأشغال وخرائط تثقل وتشف طوال أيام الأسبوع وفى المنزل لترصد ضمن أشغال السنة ولتساعد على النجاح آخر العام دون أن تتاح الفرصه لفهمها أو النظر إليها ولعل مما يكون قد شجعنى على التخلص من ذلك الكابوس انى كنت متفوقا فى علم الجيولوجيا رغم عدم وجود مراجع له سوى بضع محاضرات متقطعة لتغيب وتبدل الأستاذ المخصص .

معدات السفر

فما كادت تبزغ شمس ذلك اليوم المشهود حتى كنت واقفاً على قدماى وقد أيقظنى والدى وحثنى وشجعنى على الاسراع فى الخروج من المنزل لكى الحق قطار الصباح الذاهب إلى الاسكندرية رغم أنى كنت متعباظول الليلة السابقة اذا لم اضطجع على الفراش الا متأخراً بسبب انشغالى فى اعداد مهماتى وأوراقى التى سوف أحملها معى فى رحلتى هذه البعيدة والأولى عندى من نوعها

كانت أمتعتى هذه لا تزيد عن شنطة واحدة من الكرتون ممتلئة بالكتب وبعض الملابس التى استطعت حملها معى دون سابق خبره بما يلزم لذلك من ثياب ثقيلة تصلح لفصل الشتاء وخصوصا فى تلك الأصقاع الغربية النائيه والأجواء الشديدة البرودة التى تختلف فى أجوائها وبرودتها عنا كل الاختلاف فهذا غرب ونحن شرق والشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان كما يقول الشاعر الانجليزى كبلنج ولعله قد صدق فيما وقال إن لم يأت بجديد .

مغادرة المنزل

ولقد سلمنى والدى كل ما يلزمنى من الوثائق والاوراق الخاصة بالسفر برا وبحرا من الاسكندرية إلى مرسيليا ثم منها إلى باريس ولندن عبر المانش والالتحاق بجامعة لندن. وعليه فقد حملت الحقيبة فى يدى وكنت أشعر بثقلها رغم قوتى وممارستى حينا ما بعض الرياضه مثل الملاكمة وحمل الأثقال وكرة القدم والسباحة سواء فى النادى أو فى كلية الهندسة أو رأس البر لكثرة ما كان بها من الكتب التى لم أستفد منها الا القليل لضيق الوقت وكثرة انشغالى بموضوع السفر الذى لم أكن قد تعودته أو مارسته من قبل فلم تزد أسفارى عن الذهاب إلى الاسكندرية أو السويس أو رأس البر لا أبعد من ذلك بل ربما كانت هذه أول مرة حاولت السفر فيها إلى الاسكندرية.

فحملت الحقيبة فى يدى ومعطفا خفيفا من القطن وحملت فى يدى الأخرى قبعة اشتريتها من أحد المحال الأفرنجية

وداع الاسرة

التى كانت موجودة بالقاهرة آنئذ (سلمندر) إذا لم أشأ أن البسها إلا عند صعودى على ظهر الباخرة فى الاسكندرية لأن ذلك الطقم لم يكن ما لسوفاسلمت على والدتى وإخوتى وقد شجعتنى والدتى ببضع كلمات لا أذكرها الآن بالضبط وإن كانت تهدف بالطبع إلى التشجيع مع إظهار التأثر والعطف والشفقة على فى تلك اللحظة .

لم استسلم لعواطفى بل هبطت السلم بشجاعة ونشاط وخرجت إلى الشارع وهو شارع رفعت خلف المدرسة التوفيقية وكان يرافقنى والدى رحمه الله وشقيق الدكتور عبد المجيد فؤاد ولم يكن قد مضى على تخرجه كطبيب إلا عامين وقد تعهد أن يوصلنى إلى الاسكندرية ثم منها إلى الباخرة لقلة خبرتى وقتذاك ولمونتى وتؤدبى عند الميناء .

ودعنى والدى على محطة ترام التوفيقية بعد أن شجعنى وزودنى بكل ما فى استطاعته .

إلى محطة القاهرة

كوالد نحو ولده والحق يقال لقد كان له الفضل فى اعداد كل ما يلزمنى من وثائق وأوراق ومكاتبات مابين البعثة وإدارة الجوازات والقنصليات وشركة البواخر وجامعة لندن وغيرها دون أن يكون لى أدنى فضل فى ذلك حتى لحظة رحيلى وإنها لمنة كبرى لم أكن أدرك مقدارها وأقدرها حق قدرها إذ ذاك .

وأن تكن هى فكرة نبتت فى رأس شقيق الأستاذ عبد الرازق وصـــل بنا الترام إلى محطة القاهرة بسرعة لا بأس بها نظرا لمروره إذ ذاك من فوق كبرى شبرا وذلك قبل إستحداث فكرة النفق وتحول حركة لمرور الكبرى اليه ولم يكن قد ظهر بعد مشروع مسجد نفق شبرا الذى أنشأته واجتهدت فيه ثم استولى عليه الغير وكان مفروضا أنه المقر الأول للجامعة الاسلامية لنشر الثقافة الجامعية حول العـــالم باعتبارها نواة لمشروع جامعة الدول الاسلامية الذى لم يزل قائما باذن الله .

قطار القاهرة — الاسكندرية

وركبنا القطار من محطة القاهرة القديمة قبل أن يدخلها أى نوع من تلك الاصلاحات والتحسينات العديدة التى طرأت عليها طوال ربع قرن من الزمان والتى بلغت ذروتها خلال بضعة السنوات الأخيرة أيام العهد الجديد المسمى بعهد الثورة ونخص بالذكر منها إقامت تمثال رمسيس مقام تمثال نهضة مصر مما سنذكره بالتفصيل فيما بعد عند التحدث عن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . ودستورها الجديد وقيام النظام الجمهورى .

مضى بنا القطار ينهب الأرض نهبا فى سرعة معتدلة لا هى بالسريعة جداً ولا بالمتئدة وإن كان المفروض أن ذلك هو القطار السريع بل وأسرع وأفخم قطار فى مصر فى ذلك العهد ولو أن مظهره ومخبره إذ ذاك لم يكن مما يشرف ويسر إذا قارناه بما فى البلاد الأخرى التى مررنا عليها هذا عدا ما به من قلة وسائل الراحة والطمأنينة والفخامة خلال درجاته الثلاث وبالأخص الدرجة الثالثة التى يستعملها غالبية الشعب فقد كانت .

مشاهد على جانبي الطريق

ولا تزال مضرب المثل فى قذارتها ووضاعتها ومقاعدها الخشبية غير المؤثثة وكثرة الزحام والفوضى المتبعة فيها عدا أشياء أخرى كثيرة لا يتسع المقام لذكرها ولا مما يليق ولعلها الآن فى طريقها إلى الزوال والتلاشى خلال العهد الجمهورى الجديد .

جلست أنظر من خلال النافذه وعلى جانبي الطريق لم تكن تبدو لى غير تلك السهول الخضراء المترامية المنبسطة وكلها فى نسق ولون وطابع واحد لا يكاد يختلف وهو ذلك الطابع المألوف الذى تتسم به أرض وادى النيل من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب منذ آلاف السنين وقرى متناثرة على طول الطريق فى طرازها القديم ومبانيها البسيطة المصنوعة من الطوب النىء أو الخشب أو القش الا ما ندر من بعض أملاك البنوك والشركات والدوائر والمصالح الحكومية — يغطى أسطحها الحطب والقش الذى يعتبر أهم وقود للفلاح فى مصر لولا ما يتسبب عنه من حرائق تأكل الحرث والنسل وتأتى على الاخضر اليابس

ومن هنا وهناك كنت أرى مناظر الفلاحين فى ثيابهم .

الريف المصرى

البسيطة المهلهلة رجالا ونساء وأطفالا وشيوخا لم تفقدهم شيخوختهم عن الكد والعمل فى الحرث والعزق والسقى وما إلى ذلك من ضروب السعى والجهاد بعضها شاق والبعض غير مجد إلى جانب ذلك منظر السواقى والمحاريث والنوارج والطنابير والشواديف والفوءوس والمناجل آثار باقية من عهد مدنيات قد انطوت وتلاشت منذ قرون عديدة وأجيال سحيقة بل وآلاف السنين ولكنها لا زالت قائمة تتحدث عن قدم العصور وأسرار الانسان ول

وفجأة توقفت تلك المشاهد فتوقف معها ذلك الخيال الشارد الذى كنت أسبح فيه مع أقدم العصور وأقبلت الرمال تلى الرمال الممتدة إلى مدى البصر . ثم تلاشت وأعقبتها المساكن وأثار العمران والمدنية — وهى تتزايد وتتوارد توارد الخواطر والمشاهد قد أسفرت عن بلد جديد وعمارات شاهقة تناطح السحاب

الاسكندريه

هاهى الاسكندرية أقبلت علينا وهلت، هاهى عروس البحر ودرة مصر الغالية وثغرها المحبوب وعرقها النابض الذى يربط مصر كلها بالعالم من أقصاه إلى أقصاه وها هو الميناء والمنفذ الكبير الى العالم أجمع، الى أوسع الآفاق .

وقف القطار فى محطة الاسكندرية بعد رحلة استغرقت ثلاث ساعات ونصف على ما أذكر بالتقريب .

أسرعت فى حمل حقيبتى فى يدى والخروج من المحطة فقد أزف الوقت والوقت من ذهب .

كانت اذا ذاك المحطة الاسكندرية القديمة ولم تكن قد ظهرت بها تلك التحسينات المتعدده التى شملت الميدان المقابل لها ولا تلك الحدائق والممرات المنسقة التى استحدثت فيما بعد بل ولا أى شىء آخر مما قد استحدث اليوم .

لم أكن قد رأيت الاسكندريه من قبل رغم انه كان ولا يزال لنا بها اقارب قرابتهم لنا وثيقه .

لم يتسع الوقت والمقام بنا كى تشاهد تلك المدينة الافرنجية الطبع والطباع والطراز . العربية الاصل والمنبت والأرومة لولا موقعها وطبيعة اختلاطها الذى يجعلها بعثة أوربيه .

بالجمرك

الذى جعلها تبدو كأنها أفرنجية بحته حتى لغتها ولهجة أهلها وعاداتهم وزيهم وتقاليدهم وتلك حال سكان الموانى فى جميع البلاد عموما لهم عادات وتقاليد مألوفة مستمده من حياة البحر والبحار .

وما كدنا نخرج من المحطه حتى استدعى شقيقى تاكسى انتقل بنا فوراً الى الجمرك حيث تمت اجراءات الفحص والتأشير والحجز وما اليها بهدوء وبدون أن يحدث أى حادث سوى بعض عوامل الدهشة التى كان يقابل بها كل مواطن فى طريقه إلى خارج أرض الوطن وخصوصا من يبدو أنه لم يكن قد سافر من قبل

استخرج شقيقى الدكتور بطاقة زياره تسمح له بمرافقتى على ظهر السفينة حتى الموعد المحدد ثم سار بنا أحد الحمالين بعد تمام الاجراءات إلى رصيف الميناء حيث شهدت لأول مرة عن قرب رأى العين إحدى تلك البواخر الكبرى الجباره راسيه بجوار الرصيف .

فى الميناء

كانت هنا حركة كبرى بجوار الرصيف من الرائحين والغادين والمسافرين والزائرين والحمالين والعمال وغيرهم وغيرهم مما لم يدع لى فرصة للتفكير أو التأمل أو حتى مراجعة نفسى قبل فوات الفرصة

كانت تلك هى الباخرة أنجور إحدى البواخر الكبرى لشركة المساجرى ماريتيم الفرنسية التى تعمل رئيسياً على الخط بين الاسكندريه ومرسيليا مارة أيضا ببعض ثغور الشام وفلسطين وحمولتها خمسة عشر ألف طن

وكانت هناك باخرتين أخرتين ذات طراز من الدرجه الأولى وهما شمبليون ومريت باشا . التابعتين للشركة المذكورة وقد تلاشت كلها بعد الحرب العالمية الثانية وحل محلها مجموعة أخرى غيرها . عدا بواخر أخرى على نفس الخط وفى مستوى وحمولة أقل من باخرتنا انجور هذه التى كانت من حظى ونصيبى فى أول سفرة لى وآخر سفره ركبت فيها هذه الباخرة فقد ركبت الكثير غيرها فى رحلاتى ذهابا وإيابا وبنفس الشركة لكن لم يتح لى أن استقل نفس هذه الباخرة

على ظهر الباخرة

الباخرة مرة أخرى وأن كنت أحببت ووددت لو اتيح لى ذلك مرة ثانية وبأى ثمن مهما كان غالبا

صعدت أنا وأخى الدكتور ومعنا الحمال على سلم الباخره حتى بلغنا ظهرها ثم هبطنا الى العبير المخصص للدرجة الثالثة وهناك وضع الحمال الحقيبة على السرير — المخصص لى داخل الكبينه المقيدة تمرتها ضمن تذكرة السفر التى خيل إلى أنى لم أرها من قبل ولم أدر قط شيئاً مما قد كتب فيها . . .

صعدنا بعد ذلك مرة أخرى على ظهر الباخرة وكان يسوده حركة كبيره ونشاط لايقل عن ذلك الذى شاهدناه على رصيف الميناء وحركة صعود وهبوط ولغط ونقاش ما بين الحمالين والمسافرين وموظفى الباخره ونقل أمتعته ومساومة على الأجور هذا عدا حركة الوثشات وهى تنقل البضائع من على الرصيف إلى ظهر الباخره حركه ونشاط وقفز وجرى وصراع يستمر حتى يحين موعد الرحيل فتنتهى تلك الحركه المعركة ليحل محلها السكون

الاستعداد للرحيل

والمعركه ليحل محلها السكون والهدوء وما كان أحوجنى إليه فى تلك الساعه الرهيبة والحرجه .

رأيت الناس صفوفا متراصه حول الدرابزين السطح القابل للرصيف وهم بين مسافر وزائر ، مسافر يتحدث إلى زائر يستعد ليودع مسافر .

وقفت مرتكزا إلى الدرابزين وقد تسمرت قدماى فى أى الأرض وأخذت ارقب الميناء والرصيف وقد تزايد الزحام حوله وابتدأ تدافع الناس خارج النطاق الموضوع عنده بمعرفة البوليس لضبط الحركة الصعود والهبوط ومراقبتها لئلا يفلت من لاحق له أو ليس معه جواز أو تصريح يخول له المرور فى الاتجاهين .

دق جرس تناول طعام الغذاء على الباخره فى المكان المخصص لكل درجة ولم أكن قد تناولت إلا شيئاً بسيطا منذ الصباح فكان جديرا بى أن أبادر إلى تناول طعام الغذاء بعد طول ذلك الوقت والمجهود فدعانى أخى لكى أهبط إلى حجرة الطعام فلم أجبه ألح على فى ذلك المرة بعد المره ولكن لم اجبه أيضا ولما يأس من ذلك تقدم .

لحظة الوداع

يسبقنى إلى حيث الطعام ليحجز لى مكانا وليتعرف أيضا على حياة المراكب خلال هذه الفرصه التى أوتيت له ولقد سمعته بعد ذلك مرارا ينادى على ولكنى لم أكن ملتفتا إليه ولا مصغياً لحديثه .

لم يمض وقت طويل حتى سمعت صفير الباخره يصم أذنای وتهتز له أرجاء السفينه والفضاء من فوق السطح كان ذلك بالطبع إيذانا بالرحيل ورفع المراسى والسلالم .

ودعنى أخى فى سرعة ولهفه وشد على يدى يشجعنى ويوصينى بالثبات ورباطة الجأش ثم رايته فجأه قد هبط السلم هو ومن كان على ظهر السفينة من الزوار والاصدقاء والخلان .

وبعد قليل دق جرس آخر وضع حداً لمن كان لا يزال متباطئا لم يترك الباخره بعد ولم يهبط

ثم ارتفعت المراسى وأخيراً السلم وبدأت أسمع صوت المحركات تدور وهى تجاجل السفينه وتزلزلها ويطغى صوتها على كل شىء

الباخره تغادر الميناء

دموع حاره

هنا فقط استيقظ شعورى وخيل الى أنى كنت فى غفله أوفى حلم ونوم عميق لقد شعرت بأن الوطن عزيز والأهل والأقارب اعزاء وفراقهم شيء ليس بالهين اليسير ولامدعاه فيه الى التهاون والتقصير مهما يكن قدحدث أوكان مما لايحتمل الصبر عنه ولا يطاق

هنا رأيتنى فجأه وقد أجهشت بالبكاء وفرت الدموع من عينى تنساب كالقطر وتنهمر كالسيل وتبلل صفحة وجهى بغير اراده منى ولا وعى أو شعور فأستعنت بمنديلى كى أجفف ماابتل من وجهى وملابسى واخفف من حدته وشدة وطأته على عينى ولكن عبثا حاولت فقد ازداد تأثرى وأشتد بكائى ونحيبى عندما شاهدت أخى وهو يلوح لى بمنديله والباخره تبتعد قليلا قليلا رويدا رويدا عن الرصيف ثم تتجه للخروج من البوغاز والميناء تقودها سفينة الارشاد وعلى الرصيف جموع متراصه محتشده تتزاحم وتلوح .

عواطف متبادلة

تحيات مثلها من على ظهر السفينه من الركاب بتلهف وتأثر ودمع سخين

كان المنظر فى حد ذاته منظرا عاطفيا مؤثرا حز فى نفسى كثيرا وأثر فيها تأثيرا عميقاً بالغا لا يبرح مخيلتى فلا انساه ولن انساه ما حييت مكثت أبكى وأصيح وأصرخ كما يفعل الطفل الرضيع بل واشد كلما التقت عيناى بأخى ورأيته يبتعد عنى وهو يلوح لى بمنديله مع جموع الواقفين على الرصيف يبذل جهده فى ذلك ويمشى مع الجموع التى بدأت تتدافع وتتحرك قليلا قليلا نحو الامام فى اتجاه حركة السفينة لؤدى نحوى قصارى جهده كان وداعا حارا وفراقا مريرا رأيت فيه ما يذكرنى بآخر وجه وأثر من آثار اسرتنا العزيزة ومن يدرى هل تلك الوجوده التى تلاقت هذه المره قدر لها أن تلتقى مرة أخرى وربما كان وداعها هذا الاول والاخير .

الباخرة فى عرض البحر

وقفت أنظر والباخرة تبتعد ثم تبتعد والوجوه والأيدى والتبعات والمناديل تختفى وتتلاشى ويتلاشى معها كل ما بقى من أثر للوطن من أهل وأقارب ومعارف ومواطنين ومسافرين وأبنية وأرصفة ومآذن ومعابد وقباب غير الماء والهواء والسماء وبحر خضم تتلاطم أمواجه كالجبال وهى تعلو وتهبط وترعى وتزيد والباخرة وتهتز وتتأرجح وتشق

منظر المؤلف على ظهر الباخرة

طريقها من خلال أمواجه بعد أن أبتعدت من الميناء وأصبحت فى عرض البحر ودارت المحركات بشدة وبسرعة أخذت أدور حوالى وأحاول جاهدا على أجد أثرا لذلك الوطن المحبوب الذى فارقنى وفارقته رغما عنى وعلى حين غره فلم أجد غير أمواج تتدافق وتتدافع وترتطم بالسفينة وسماء زرقاء قاتمة متبلدة بالغيوم تنذر بالمطر

تأمـــلات

لم يعد على سطح السفينة غيرى فقد أنصرف ،

الجميع كل إلى محله وتلاهى فى شئون ومشاغله وبقيت وحدى شارداً متحسراً أعاتب نفسى وألومها على هذه الجرأة التى دفعت بى إلى مغادرة الأهل والوطن بغير ضرورة قصوى أو عذر قهرى الا التشبث بالآوهام والطموح إلى المعالى والآمال الواسعة .

وبينما أنا سابح فى فكرى غارق فى بحر تأملاتى هذه إذ برجل السفينة (متردو تيل) يصرخ على وينادينى بلغته وباشارة من يده لكى أنزل . سرت نحو السلم وهبطت درجاته وأنا أتمايل وأترنح تارة من تأثير الفكر وأخرى من أثر دوار البحر وفعله وقد ابتدأ يلعب برأسى وجسمى وتتقلب له معدتى وأمعائى ولم يكن قد سبق لى أن عرفته وأدركت هوله وتأثيره .

وقفت وسط الممشى حائراً لا أدرى أى اتجاه أسير ولا أى سهم أو طريق يوصلنى ولم أر غير قبعـــات تروح وتجى وأصوات تهتف بلغات .

التحدث باللغات الافرنجية

ورطانات لم أستطع أن أميز منها شيئا أو أفهم منها حرفاً فلاهى بالعربيةولا بالانجليزيةالتى كانت ولا تزال لغتنا الأوربية الأولى والرئيسية إلى اليوم .

أما اللغات الأخرى مثل الفرنسية أو الايطالية أو غيرها فلم أكن قد درست منها إلا الفرنسية دراسة قشور لا تزيد على بعض الأسماء والأفعال والحروف لا تسمن ولا تغنى من جوع ولا تؤدى إلى أى غرض من الأغراض .

كانت هناك أشخـــاص تروح وتجىء فى الممر وتتسامر وتتحادث على قرب منى وعلى رؤوسهم القبعات وأنا واقف متحير لا أدرى ماذا أفعل ولا بأى لغة أتحدث ولقد حز فى نفسى أن أحداً من أولئك الرائحين والغـــادين لم يحاول الالتفات إلى أو التفاهم معى وإرشادى إلى الجهة التى أريدها فقدكانت هناك ممرات أخرى كثيرة وكنت إذ ذاك متعباً حزيناً محتاجا إلى الراحة والهدوء .

مقاطعة العربية

مر وقت وأنا أروح وأجيء من أول الممر (إلى آخره) وأنا أحاول أن الفت نظر واحد من أولئك الملاعبين الذين كانوا يمرون من حولى وهم يتحدثون بلغاتهم ولم يشأ واحد منهم أن ينطق بلفظ واحد عربى .

قلت فى نفسى يالله العجب هؤلاء الخواجات الآن عـــلى ظهر السفينة يتنكرون للغتنا وعربيتنا ويتفاخرون بلغاتهم وعاداتهم وجنسيتهم ونحن على النقيض من ذلك .

وفجأة شعرت برجل السفينة (المتردوتيل) يتقدم منى ويأخذ بيدى يشدنى ويشير إلى ليوجهنى الى طريق عرفتى التى ضللت السبيل اليها . كان هو مثلهم أيضا لا يعرف العربية رغم أنه يجيء الاسكندرية على الباخرة مرة كل أسبوعين على الأقل وربما تقيم عائلته فى الاسكندرية منذ سنين ولكنه لم يشأ أن ينطق بحرف واحد عربى ولو للضرورة جذبنى من طرفى ولعلها شفقة منه حتى أوصلنى الى الغرفة التى بها سريرى وأرشدنى اليه بين بضعة السراير الأخرى المتراصة بعضها فوق بعض ولعلها

اعتـــكاف

أربعة كل اثنين فى ناحية ثم أشار الى أن استلقى على سريرى اتقاء دوار البحر الذى أشتد على أثر شدة تلاطم الموج واهتزاز السفينة اهتزازاً قويا رغم كبر حجمها وعظم حمولتها .

اضطجعت على السرير وكان يخيـــل الى أن صوت المحرك ورائحة السفينة مع دوار البحر كلها تجسم على صدرى وتضغط على نفسى فأستسلمت لنوم عميق لم يوقظنى منه الا صوت رجل السفينة وهو يهزنى ويشير الى باشارات يفهم منها أن قد جاء وقت العشاء ودق الجرس وبالطبع لم يتخلف عن الحضور غيرى منذ الغذاء وكذلك وقت العشاء وقد حل ميعاده مما دعى (المترد وتيل) أن يجىء للبحث عنى والاستفسار عن امتناعى عن تناوله طعام طول النهار خلال وجبتين رئيسيتين أخذ يشير الى تارة ويلوح الى بيديه أخرى ليفهمنى بضرورة الحضور لتناول العشاء ولكنى كنت أرفض مشيراً اليه بأصبعى وبيدى ولما لم يجد فائدة من اقناعى والتفاهم معى ذهب

قلق المتردوتيل

ثم عاد بعد برهة ومعه شخص آخر ولعله طبيب المركب فنظر الى برهة ثم عاد يتحدث معه قليلا بما لم أفهمه ثم مضى الاثنان وعاد بعدها بمفرده وفى يده برتقاله دفعها الى دفعا وأشار الى بأن أتناولها . وضعتها الى جانبى على فراشى ونمت نوما عميقاً لم أستفق منه الا صبيحة اليوم التالى وقد استيقظت من نفسى ورأيت (المتردوتيل) يقترب منى وعلى شفتيه ابتسامه وهى بالطبع الوسيلة الوحيد التى كان يمكنه بواسطتها التفاهم معى لم تكن فى رمضان وسيأتى الحديث عنه بعد خصوصا فى باويس حمل الى بعضا من اللبن والزبد والمربى والخبز وهو على ما أذكر نوع الطعام الذى يتناوله الراكب فى المركب صباحا فتناولته فى هدوء وقلة اكتراث رغم شدة حاجتى للطعام . كان معى فى الغرفة أشخاص آخرين كل واحد منهم منهمك فى عمله وشئونه الخاصة من لبس أو خلع ملابس واستبدالها بغيرها وغسل الوجه والأسنان وتسريح الشعر وحلاقة وتزيين وأنتقال مستمر من الغرفة الى

محاولة الخروج من العزلة

دورة المياه أو منها إلى تناول طعام الافطار على المائدة فلم يكن هناك فرصة لدى أحد منهم كى يلتفت فيها إلى هذا المسافر الغريب العربى السحنه والاصل خصوصا وأن ذلك يعتبر اليوم الأول من الرحلة المذكورة وإن تلاقى كل من فى الغرفه وجها لوجه ولكن مناسبة التعارف والحديث وتفهم كل لشخصية ووجهة الآخر لم تكن قد جاءت بعد . فكان لا بد لذلك من مقدمات وظروف كما انى كنت لا أزال مرتبكا شارد الفكر ملتزما الهدوء والصمت خرجت من غرفتى أتفقد الحالة واتعرف الطريق إلى سطح السفينة ولاسرى عن نفسى بعض الشىء كانت هناك عدة ممرات تتبعها اسهم تبين الاتجاهات المختلفة سواء للسطح أو لدورة المياه أو المطعم أو لغرف العمال والآلات أو الدرجات الأولى والثانية ولكن الكلمات المتصلة بتلك الأسهم كانت كلها بطبيعة الحال مكتوبة بالفرنسية

بدأ الاتصال والتفاهم

بالفرنسية فلم يكن من السهل على ترجمة تلك الكلمات ولا الاستدلال على معانيها فورا إلا بواسطة قاموس أو مترجم .

عدت إلى الوقوف مرة أخرى فى وسط الممر حائرا لا أدرى أى طريق اسلكه وأى اتجاه اتجه اليه وبينا أنا واقف متحير هكذا التفت يمينا وشمالا واروح وأجىء ولا أجد لى مخرجا من ذلك التحير والضيق إذ بشخصين من أولئك الخواجات يقتربان منى ويتفرسان فى وجهى قليلا ثم يحاولان بعدها التحدث معى بالفرنسيه لمعرفة ما اذا كنت اجيدها أو أستطيع التفاهم بها ثم بعد ذلك بالانجليزيه ثم بالعربية وقد جرى بيننا الحديث التالى ملخصا بالعربية .

هل تتكلم الفرنسية ؟ فأجبت على الفور قائلا لا ولعل تلك هى الجملة الوحيدة التى كنت استطيع فهمها ثم تلى ذلك هل تتكلم الانجليزية ؟

أجبت نعم :

اصدقاء جدد على المركب

اذا فمن أى بلد أنت مصرى أم شامى أم عربى قلت مصرى . إذاً أنت تتكلم عربى ؟ قلت نعم وفعلا كان الاثنين قد ابتدءيدركان من لهجتى أننى اجيد العربيه سواء كان اصلى مصرى أم عربى أم شامى أم من أى بلد عربى آخر فالسحنه واللهجه والملامح كلها تدل على الاصل العربى — ونحن ايضا من مصر ونعرف عربى كويس ولكننا فى الاصل جريج (يونانيون) ونعرف فرنساوى وانجليزى كويس كمان . اجاب الاثنان .

أخذنا بعد ذلك نتجاذب اطراف الحديث وهم يسألونى أولا عن اسمى حيث أجبتهم بأن إسمى عبد المنعم ثم عن وجهتى ولاى غرض جئت فأخبرتهم بالطبع أنى أتجه الى لندن لا الى باريس كما قد تبادر الى ذهنهم لاول وهله وأننى مسافر بقصد طلب . العلم بجامعة لندن حيث سوف لايكون هنالك صعوبة كبرى فى متابعة الدراسة باللغه الانجليزيه كما أخبرونى هم ايضا عن اسميهما البير وسام وهم من اليونانيين المستوطنين بمصر هم وعائلاتهم منذ ازمان طويله ولكنهما ذاهبان هذه .

انفراج الأزمة

المره الى باريس للعمل بأحد المحلات الكبرى وذلك بتوصيه من بعض اقاربهما ومعارفهما هناك . وأخيرا توثقت الموده بيننا وبدأت اشعر بالفراج الازمه والخروج من ذلك المأزق والضيق الذى كنت أعانيه واشعر بوطأتة منذ تركت أرض الوطن واقلعت بنا السفينه من ميناء الاسكندريه فى طريقها الى مرسيليا اولا وقد مضى على وأنا على تلك الحال حوالى اليوم والليله . فحمدت الله حمدا كثيرا وشعرت بان الله لم ينسانى ولن ينسانى قط ولكننى أنا الذى نسيته واستسلمت لليأس والقنوط وهما سلاحان من أسلحة الشيطان الماضيه التى يسلطها على بنى آدم ليقتنصه بها ويوقعه فى حبائله . لقد طمأنانى وتعهدا معا أن يعاوناني ويرشد أنى خلال الرحله بعد ان عرفا أنى أكاد أجهل الفرنسيه كل الجهل وأدركت أنهما مقيمان معى فى نفس الغرفه ولعل ذلك من من الاسباب التى حفزتهما

جهل الاجانب العربية فى مصر

وجعلتهما يشكان فى معرفتى بالفرنسيه . كانا يتكلمان العربيه الدارجة بدرجة يخيل إلى من يسمعهما أنهما من صميم أبناء الشعب أو بمعنى آخر أولاد البلد لا من ذلك النوع من الخواجات الذى يقضى فى مصر العشرين أو الثلاثين عاما وهو لا يتحدث العربيه الا بتلك اللهجه الدارجة المكسره المألوفة عنهم والتى بواسطتها وحدها يمكن الكشف عنهم ومعرفة انهم اجانب لا مصريين كما أن القليل منهم لا يعرف القراءه او الكتابة بالعربية ويفضل عليها الفرنسية حتى ولو لم تكن لغتهم الاصليه بسبب كون التجاره والصناعه وكل مرافق الحياه عموما كانت والى عهد قريب فى يد الاجانب وبا الاخص فى الموانى حيث حركه التصدير والاستيراد وكل ما يتبعها ويظهر أن تلك الحاله التى كانت سائده فى البلاد كلها قد أنتهت إلى حد بعيد وهى فى طريقها الى الزوال نهائيا الا ما تدعو اليها الضرورة من حيثا لاتصال الدولى — والمعاملات التى تقتضى الابقاء على ما يرجى من إبقائه نفع

عود للحديث بالعربية

صعدنا بعد ذلك معا الى ظهر الباخره وأخذنا نتحدث بشوق عظيم الى ذلك وأن كان قد خيل الى فى بادى الامر أن العربيه قد انتهت من على سطح المركب وبعد أن غادرنا الاسكندريه وأنى لن أعود أسمعها بعد ذلك ولكن الله قيض لى هذين الرفيقين الجديدين لكى نستعيد معا التحدث بها وبصوت عال وبعزه وقوة مستمده لى من قوة الله وعظمته. وجدنا أيضا كثيرين قد ابتدءوا يظهرون ويشتركون معنا فى الحديث باللغه العربيه بعد أن كادوا ينسونها أو يتناسونها باشتغالهم عنها الى غيرها فكانت فرصه عظيمة هزت فيها من كبرياء اللغات الاخرى وعرفت من لم يكن يعرف أن العربية باقية راسخه كالطود محبوبه حتى من الاجانب عنها متى أوتيحت الفرصه لاتقانها وهذا ما لحظته مرارا من كل من شهدته خلال رحلاتى

حنين البعض إلى العربية

من الاجانب الذين كانوا فى مصر أو أى بلد من البلاد العربية خلال رحلاتى كلها مما سيأتى ذكره عند كل مناسبة فقد كانوا دائما فى حنين وشوق وتلهف لمقابلة من يتحدثون معه باللغة العربية واستعادة ذكريات الأيام السعيدة التى صدقتهم فى أى بلد عربى اشوا فيه إلا النزر اليسير من المتعصبين والاستقراطين الذين كانوا يتحاشون دواما التخاطب بالعربية . غطرسه منهم وتكلفا لامبرر له واهانة وتهاونا فى حق مصر العروبة .

حان وقت الغذاء ودق الجرس معلنا حلول موعده وهو نفس ذلك الجرس الذى سمعته بالأمس وقبل أن تغادر الباخرة ميناء الإسكندرية وقد امتنعت عن الذهاب إليه بسبب ما كنت فيه من حالة نفسية مضطربة وأعصاب مرهقة ولكننى الآن وبعد أن هدأت نفسى وأعصابى قليلا وقد انقضى أربعة وعشرين ساعة على هذا الاعتكاف والاضراب عن الطعام فقد شرت .

الاقبال على تناول الطعام

حينما حان الموعد ودق الجرس أننى أولى وأحق من غيرى ممن كانوا معى بالاسراع إلى تناول الطعام والتهامه التهاما .

هبطنا فى السفينة إلى جهة المطعم حيث جلس كل منا إلى مكانه بعد أن أرشدانى إلى المكان المخصص على المائدة وكان أول من أخذته الدهشة هو المتردوتيل فلم تكن تصدق عيناه أننى ذلك المنكود الحظ الذى كان قد يأس من التفاهم معه واقناعه بضرورة تناول الطعام . كان الطعام بالطبع على الطريقة الفرنسية على اننى كنت دائما أحاذر من عدم تناول الأطعمة التى يدخل فيها لحم الخنزير محافظا على ذلك ما استطعت . والطعام الذى يقدم للمسافر بالباخرة يكون عادة كافيا ووافرا للغاية . ويستطيع الراكب أن يطلب المزيد منه جملة أو من الصنف الذى تشتهيه نفسه ويروق له مقابل دفع بضع فرنكات أو أى عملة أخرى ليحظى بما يريد بل أن عمال المطعم والبحارة وكل موظفى الباخرة .

يتناولون دائما كفايتهم من الطعام ويزهدون فيه وكثيراً ما يشاهد المسافر فضلات الطعام وقد تكون عظيمة للغاية وهى تلقى فى البحر طعاما للسمك الذى يترقب تلك الفرصة دواما ويستمر مرابضا لها خلف السفينة .

تناولت طعام الغذاء هذا مسترشدا فى ذلك بما كان يشير على به هذان الزميلان وخصوصا لأن طلبى من اللحم كان منصرفا نحو اللحم البتلو أو البقرى أو الضأن أما لحم الخنزير فكنت امتنع عن تناوله مع استفسارى عن النوع الذى كان يقدم لى بالرغم من أن ذلك كان يثير دائما عاصفه من الدهشة وكثرة الفضول والتساؤل عن هذا التحرز والتدقيق ويفتح بابا للحديث والنقاش حول هذا الموضوع وغيره من الموضوعات التى يظهر فيها أثر التحريم واضحا عندنا معشر المسلمين . كما فى الآية الكريمة حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير إلى آخر الآية . وتمشيا مع الكتاب والسنة والذوق السليم .

تجاذب أطراف الحديث

انتهينا من تناول الطعام وكان كما قلت كثيرا مما عوضت به أمما فاتنى خلال الازمنا لعاطفية السابقة .

عدنا بعد ذلك إلى غرفتنا وأخذنا نتحدث أحاديث شتى وننتقل من موضوع إلى آخر مهما كان أو تافه وخصوصا ما كان له اتصال بموضوع السفر وما يلزم معرفته وما يجب تحاشيه وهى الموضوعات التى يألفها المسافرون ويحرصون عليها أكثر من حرصهم على ما تركوه وراءهم ولم يعد لهم حاجة اليه فى ترحالهم ولقد ادهشنى كثيراً أن يكون لديهم إلمام ومعرفه تامة بلغتنا العامية وبكل ما فى مصر من تقاليد وعادات وأخلاق كما سمعت انهم كانوا يعرفون كثيرا من العائلات الكبرى فى مصر وكان من أصدقائهم بعض أفراد عائلة ذو الفقار وكانوا يسافرون معهم أحيانا

استمر بنا الحال هكذا تارة فى الغرفة وأخرى فوق ظهر السفينة نجوبها من أولها إلى آخرها ونصعد وننزل فى ممراتها درجاتها المختلفة حتى أصبحت .

حياة الأسفار

ملما كل الالمام بجميع ما فيها وما يجرى على ظهرها ولم أعد بعد التخبط وأضل الطريق كما حدث من قبل حتى التقيت مصادفة بهذين الزميلين وكان ذلك توفيق من الله وفضل منه عظيم .

حل موعد تناول الشاى وكان جميلا ثم أعقبه بعد ساعتين تقريبا طعام العشاء وقد أقبلت عليه وتناولته منهم وشهيه عدنا بعد ذلك الى غرفتنا لكى نستعد للنوم وكانت هذه أول الليله آوى فيها الى فراشى هانئا مسروراً مستريح مبال وقلما يلجأ المسافر الى النوم مبكراً وخصوصا اذا كان حوله اصدقاء مهما كان نوع السفر برا او بحرا اوجوا مكثنا على هذا الحال مدة الايام الباقيه على ظهر المركب فى طعام وشراب وتنزه وسمر وطرب وتسليه وتجاذب أطراف الحديث وشغلنا كل ذلك عن التفكر فى الاهل والوطن والاحباب ونسيت ما كنت فيه من هم وغم وحزن وضيق حتى كان فجر اليوم الخامس من رحلتنا هذه حيث بدت لنا من بعيد أول أثر من آثار الاقتراب من ميناء مرسيليا . وأن كان قد سبقه مشاهد أخرى من بعيد قليلة غير واضحة .

أقترابنا من مرسيليا

استيقظنا فى ساعه مبكره جدا وقبل بزوغ فجر اليوم الخامس من قيامنا من الاسكنديه وهو يوم الخميس ٥ ديسمبر على صوت ضوضاء كبيره وهمسات وصيحات فرح تردد بالفرنسيه كلمات اقتربنامن مرسيليا . ها هى الانوار تظهر وتبدو من مرسيليا قدأصبحنا على مسيرة بضع ساعات قلائل منها .

اقتربت أنا ومن معى من النافذة الزجاجية المطله على ذلك البحر الخضم

صورة تمثل الاقتراب من ميناء مرسيليا

أنوار الميناء

المظلم الحالك السواد الذى ترتطم أمواجة بجسم السفينه فيرتفع أنينا بعضنا من رزاذه وزبده فيلمس وجوهنا ويصيب ملابسنا وقد فتحناها وهناك على مدى البصر الشاسع ومن خلال تلك الظلمه الحالكه بدت من بعيد شبه نقط باهته متناثره من النور الخافت الضئيل تتزايد شيئا فشيئا وتلألأ قليلا قليلا متجهة نحونا ببطأ

كان ذلك البصيص الضئيل من النور هو بارقة الامل وايذان بقرب الوصول الى هذا الوطن الجديد المجهول الذى ظهرت طلائعه وهلت بشائره وبدت بتأشير أنواره فى صورة تلك الاضواء الضئيله الخافته وسط تلك الظلمه الرهيبه الحالكة والامواج الصاخبة المتدافعه وهى تضرب جانب السفينة ضربات متواصله شبه منتظمة وترن فى أذاننا طول الوقت بأصواتها وأنغمها وموسيقاها المألوفه التى لا تفتر ولا تهدأ ولا تنقطع لحظه واحدة منذ أقلعت بنا السفينه من ميناء الاسكندريه كان مشهدا جاذبيا خفافا رائعا الهتنا جاذبيته وخافقيته وروعته عن ضجعتنا هذه غير المريحه وعن تناهر الزذاذ المتزايد على وجوهنا وملابسنا بل واسرتنا السفريه

المعلقة ونحن ننظر اليه ونرقبه من خلال تلك النافذه المستديره ذات السمك العريض ليحول دون وصول الماء ويقاوم ضغط الموج على السفيه وكنا قد فتحناها لنزداد رؤيه ويقينا وقوة أبصار .

ساعة الفجر

أقبل الفجر وبدت تباشيره وبدت أشعته واضواءه الشيء الكثير من تلك الظلمه الموحشه المختلطه مع الموج وهنا استال لنا قليلا قليلا ماكان مختفيا من سحر وجلاءه ومن روعه وجمال خلال تلك الاسراج المنيره التى كانت ضئيله خافته فأصبحت اضوء وضاءه متلالئه تظهر من بعيد كسلسلة ذهبيه كبيره ملتفه تهتز وتتمايل تمايل الورود والازهار على الاغصان كانت بالطبع هناك حركة متزايد موضوضاء كثيره خلال السفينه كلها وصيحا تفرح وسرور وطرب ورقص وموسيقى وغناء صعدد

صعدنا على ظهر السفينه معاووقفنا نمتنع انظارنا بتلك المشاهد الرائعة المقتربة منا وقد أقبل الصبح لنا وأشرقت نواره فبددت ظلمه الليل البهيم وتلاشت معها تلك السلسله الذهبيه الممتده القادمة نحونا من أطراف مرسيليا وحلت محلها تلك السلاسل الذهبيه الممتده من قرص الشمس .

قلعة إيف

وقد أخذ يبدو شيئاً فشيئاً من خلف الأفق وهنا استطعنا أن نميز أعد إلى الأشياء قبل أسافلها كما كنا قد درسنا فى علم الجغرافيا الن البراهين الدالة على كرويقا لأرض . أخذنا نتجاذب أطراف الحديث وقد انتقل بنا خأة إلى الكلام عن قلعة ايف القريبة من مرسيليا وهى التى ورد فكرها فى قصة الكونتدى مونتكريستو لمؤلفها الشهير الكسندرديمرروهى بالذيع من وواتع ما ألف وأبدع عدا رواياته الفرسان الثلاثة وعشرين عام ابعد بعد ، والقناع الحديدى ، وكلها قصص وروايات رائعة شائقة لتداخل معظمها مع الأحداث الكبرى التى كانت تجرى فى فرنسا خلال الثورة وما قبلها .

وقلعة أيف أو الأخرى سجن أيف الذى ورد ذكره فى قصة مونت كريستوهو بيت لقصيد فقد أعطى خيالة القصصى لتلك الجزيرة الصغيرة شهر عالمية لم تحظ بمثلها أية جزيرة أوقلعة فى العالم بالقرب من خزان أسوان والتى ورد ذكرها فى قصص ألف ليلة وليلقو أن كنا لم نعرف تلك القصة أى أهم وبعدقليل بدأ الميناء لنا واضحا جليا والسفن الكبيرة .

ذكريات

العابرة رابضة منتشرة من أوله إلى آخره ما بين استعداد للرحيل أو اصلاح من عطب أو تفريغ وشحن ولا ريب فهى أكبر موانى البحر الأبيض على الاطلاق لا ينازعها فيه منازع إلى يومنا هذا حتى تحين الفرصة لثغرنا المحبوب الاسكندرية وما ذلك على الله بعزيز .

تناولنا طعام الافطار وسط ضجيج وهرج ومرج وتجاذب أطراف الحديث وكانت بالطبع آخر وجبة تناولناها بالباخرة وجمعتنا معا فى صحبة واحدة لم تدم طويلا ولكن ذكراها لا تزال باقية فى نفسى عالقة فى ذهنى كلما أتيح لى أن استرجع الماضى وأعاود ذكراه بين الحين والحين .

لم تدم طويلا ولم أعد أشاهد بعدها تلك الباخرة أنجور التى حملتنى على ظهرها خلال تلك السفرة .

ولا المتردوتيل الذى صادفنى فى محنتى الأولى ولا أى أحد آخر ممن التقيت بهم خلال تلك الرحلة .

الوصول إلى مرسيليا

توقفت محركات لسفينة كالمعتاد عند اقترابها من مدخل الميناء لتحل محلها سفينة الارشاد وأقبل نحونا لنشن ادارة بوليس الميناء للتأشير على الجوازات قبل الوصول حسب التعليمات وكانت كلها فى حوزة ادارة المركب .

مكثنا بعض الوقت فى غرفنا ليجمع كل منا أمتعته المبعثرة ويجهزها استعدادا لحمله نزول إلى رصيف الميناء عند وقوف الباخرة وهبوط السلم .

كنت مرغما طول الوقت على البقاء إلى جوار أصدقائى الجدد الذين جمعتنى بهم الأقدار والمصادفات وبالأخص البير وسلم والاستماع إلى نصائحهم .

صعدنا معا مرة أخرى إلى سطح السفينة حيث ذهبنا إلى المكان المخصص لادارة البوليس وهى يكون عادة فى جناح الدرجة الأولى وكان قد حل دورنا بعد الانتهاء من التأشير على جوازات ركاب الدرجات الأولى والثانية أولا وهناك أجرى قومسير البوليس التأشير على جوازات سفرنا والحمدلله. وأعطى لكل منا جواز سفره ليستطيع النزول به من المركب فى الوقت المحدد .

فضل الآباء على الابناء

ولعل مما يدعو الى الغرابة أن والدى رحمه الله كان قد أتصل بالقنصليتين الفرنسية والانجليزية وملأ الأستمارات للملازمة بمعرفته وخبرته وأجرى عملية التأشير عليها وقبل ميعاد السفير بيوم واحد وقد رأينا آخرين من خريجى الهندسة وكانو بصفة بعثة ولم أتحدث معهما وقتها وسياتى ذكرهما فيما بعد عندما تلاقينا معا فى أحد شوارع لندن الكبرى والمسمى شارع أكسفورد وذلك بعد فترة من وصولنا وبطريق الصدفة وكانت أدارة الجوازات فيما مضى أو قلم الباسبورتات عليه إدارة انجليزية يشرف عليها مدير أنجليزى وأشخاص آخرين معظمهم من الأنجليز والاجانب وكان مقرها بشارع الأنتكخانه . .

لم يمضى وقت طويل رغم تقدمها السفنة ببطء حتى دخلنا الميناء ورست الى جوار الرصيف المخصص بين صيحات متعاليه وتهاليل وهتفات، تشق عنان السماء ابتهاجا بسلامة الوصول من جموع الواقفين والمنتظرين على الرصيف والرائحين والغادين .

الباخرة اتدخل الميناء

ألقت الباخرة أنجور مراسيها حوالى الساعة التاسعة صباحا وهبط السلم الى الرصيف وثبت إليه استعدادا الحركة النزول والصعود كما كان الحال فى الاسكندرية التى فارقناها منذ خمسة أيام بين دموع الفراق وصيحات البكاء وأنات وتأوهات فها هى اليوم ترسو بعد انتهاء تلك الرحلة على رصيف جديد بين دموع الفرح والمرح . وصيحات البشرة والسرور وقد توافدت وتزاحمت عليه جموع متراصة متحشدة وأكثر بكثير مما كان بالاسكندرية وهى تتدافع الآن بالايدى والأرجل والمناكب فى حماس وشوق تتدافع لتقترب من الباخرة رهى راسية لتحية القادمين واستقبال من جاءت لاستقباله ولقائه وهكذا قدر لى أن أشاهد مرة أخرى من على ظهر الباخرة دموع ولكنها دموع الفرح وصيحات الترحيب والابتهاج وقبعات ومناديل وأيد تلوح وترتفع فى الفضاء علامة شوق وسرور وأشارة ترحيب وترغيب وأشخاص ينادون بعضهم البعض والكل متلهف الى تلك اللحظة التى تلتقى فيها النفوس مع النفوس مع والوجوه وتصافح الأيدى .

جموع المستقبلين

ويشتد ويقوى العناق ومن بين تلك الجموع الواقفة استطاع بعض زملائنا أن يتعرفوا على أقاربهم ومعارفهم وتبادلوا معهم التحيات والاشارات . أما أنا فقد وقفت بالطبع وحيداً على هيئة متفرج أو غريب أو كما يقول عليه الصلام والسلام . كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل — وهكذا كان حالى فى تلك الساعة وأن لم يكن قد ورد على خاطرى وقتها مثل هذا الحديث الشريف أو غيره .

كان المفروض أن أجد من يستقبلنى فى مرسيليا ويرشدنى إلى الطريق وذلك بناء على توصية من مصر بعثها زميل الى آخر بمرسيليا وطمأننى لذلك.

نزلنا جميعا إلى رصيف الميناء وبحثت اناوزملائى بين الجموع الواقفة عن أحد يكون قد حضر لاستقبالى كما قيل لى او ينادى او يسأل عنى وعن اسمى ولكنى لم أعثر على احد قط لا انا ولازملائى . اخذنا طريقنا الى الجمرك المسمى بالفرنسية لدوان — لفحص امتعتنا والتأشير عليها بالمرور .

فى طريقنا إلى باريس
جولة فى مرسيليا

كانت الساعة قد قاربت العاشرة عندما استطعنا أن نغادر جمرك مرسيليا أو كما يسمونه بالفرنسية لدوان كان معهم أمتعة كثيرة استقر رأيهم على نقلها على عربه ذات حصان حيث ذهبنا بها الى محطة سكة حديد مرسيليا وهناك أودعنا أمتعتنا كلها فى محل الأمانات وإن كنت بالطبع كما ذكرت سابقا لا أعرف الشىء الكثير عما يقومون به لسابق خبرتهم ومعرفتهم بمرسيليا وغيرها أما انا فلم أكن إلا تابعا منقادا لهم والحمد لله انهم لم يكونوا من اخوان السوء فينتهزون فرصة غفلتى هذه وجهلى فيوقعون بى أو يسرقونى دون أن أشعر أو حتى لو شعرت فلا أستطيع الاستغاثة ومعرفة الفاظها أو التفاهم مع أيا كان فى هذا البلد الغريب .

كانت هناك فرصة واحدة لى وهى أننى أحمل معى تذكره توصلنى حتى لندن بما فى ذلك البحر والبر دون احتجاج إلى شراء أى تذكرة طول الطريق وهى :

أهم مشاهد مرسيليا

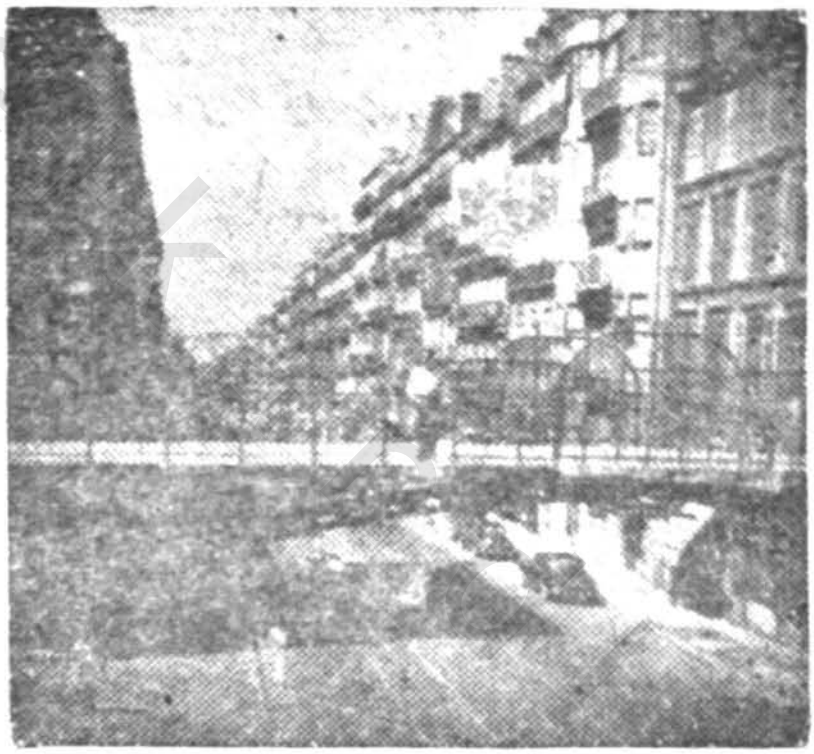

وهى أيضاً فكرة كانت ناجحة ابتكرها لى والدى ليسهل لى طريق الوصول رعدم المشقه فى التفاهم ومحاولة شراء تذاكر جديدة سواء فى مرسيليا أو باريس أو غيرها .

قام الأصدقاء بعد ذلك بحجز أماكن منمرة لنا بأحد صالونات الدرجة الثالثة بالقطار الذى يقوم من مرسيليا إلى باريس فى الساعة الثامنة مساء تقريبا اذ لابد من حجز الأماكن مقدما حتى

فى الدرجة الثالثة مبكرا وخصوصا فى مثل قطار مرسيليا باريس الذى يكون عادة شديد الازدحام ومواعيد قيامه غالبا تكون فى فلساء لطول المسافة التى يقطعها طول الليل حتى الصباح وأهم .

وأهم ما يتحدثون عنه فى مرسيليا هو طريق الكانابير وهو أهم طريق يشاهده السائح ويتمتع به ويحاول أن يأخذ له مناظر . ثم قلعة ايف الى تقع فى جزيرة قريبة من الميناء يمكن الوصول اليها بطريق اللنش فى مده وجيره لا تزيد على النصف ساعة تقريبا .

قصة الكونت دى مونت كريستو

وهى تلك القلعة التى كما قلنا سابقا ورد ذكرها ضمن قصة كونت دى مونت كريستو والتى سجن فيها ظلما القبطان الشاب ادمون دانت كما زعم المؤلف مدى الحياة وكيف نجا منها بمعونة صديقه فى السجن الاب فريومى الذى قضى حياته كلها فى السجن يحفر الحجر ويكتب بدمه وبدلا من أن ينجو وصل الى غرفة دانت المذكور لخطأ حسابى فى التقدير .

وجبة القواقع فى مرسيليا

أن ما تخيله دیماس فى تلك قصة يعتبر شيقا ممتعا للغاية مع قدرة وبراعة فى التأليف وخصب فى الخيال وسيأتى وصف زيارتنا لتلك القلعة فى رحلاتنا القادمة . عدنا توآ بعد ذلك إلى المدينة نجوب أطرافها على أقدامنا ونسترسل فى المزاح لنسرى عن أنفسنا بعض الشيء وكانوا يسألونني دائما عن رأيى فيما أشاهده من حيث المناظر الغريبه على والتى جئت الآن لاراها لأول مرة أماهم فقد اعتادوا عليها من قبل وكنت الاحظ اثناء سيرى أن تأثير ركوب البحر لا يزال متسلطا على وكان يخيل إلى أن الأرض تميد بى .

وتهتز كما لو كنت لا أزال على ظهر السفينة . ويظهر إننى وحدى الذى كنت أشعر بمثل هذا الشعور ولعل ذلك راجع إلى انها كانت أول رحلة لى عبر البحار .

استقر رأينا بعد ذلك على أن نذهب إلى أحد المطاعم لتناول تلك الوجبة التقليدية التى تشـــتهر بها مرسيليا ويسمونها أكلة القواقع (لويتر) والتى يهتم بها كل سائح ينزل إلى مرسليا كما يهـ

قطار مرسيليا باريس

الذاهب إلى نابولى أو أى بلد فى إيطاليا بطبق المكرونا وفى مصر بالملوخيا والصولما وفى المغرب بأكلة الكسكسى وهى فى نظرى شهيه للغاية ووجبة عظيمة لا مثيل لها وأهم من كل ما سبق ذكره. لم تعجبنى بالطبع أكلة القواقع رغم غلوها وأن كان أصدقائى الاغريق قد سروا منها لأنهم تعودوا عليها وهى من تقاليدهم وطبيعة أطعمتهم . قمنا بعد تناول الطعام نتابع سيرنا فى المدينة مخترقين طريق الكانابيير الشهير وأهم شوارع مرسيليا ثم صعدنا بعد ذلك الى المحطة على درجات مرتفعة تعرف بها . ثم نقلنا أمتعتنا من محل الأمانات الى رصيف المحطة حيث كنا تركناها بها بايصالات ثم حملناها الى القطار فى الصالون الذى به النمر المحجوزة جلسنا الى أماكننا فى الصالون وكان الزحام شديدا فى هذا القطار ولولا اننا كنا حجزنا أماكننا من وقت طويل لما وجدنا أى مكان لنا. وقطار مرسيليا باريس هذا قطار له شهره عالمية ولذا فهو قطار فخم ممتاز والأماكن المخصصة لركاب الدرجة الثالثة فيه أفضل منها فى الدرجة الثانية عندنا فى مصر فى ذلك الوقت وأن كانت الحالة لم تتغير كثيراً الآن فما زالت فى حاجة الى تغيير شامل .

بين المقهى والسينما

حيث ذهبنا إلى أحد المقاهى وشربنا القهوة على الطريقة الفرنسية المعروفة بأسم القهوة السوداء وهو البن غير الناعم الذى يصفى من القهوة أماهم فلست أدرى ربما تناولوا أشياء أخرى مما تعجبهم وتتفق مع مزاجهم . اتفقنا على أن تمضى ما تبقى بعد ذلك من الوقت بأحدى دور السينما حيث كنا وقت الغروب دخلنا السينما وبالطبع فلم منها إلا المناظر أما موضوع الرواية فلم يكن فى استطاعتى فى ذلك الوقت أن أفهم منها إلا القليل هذا عدا ما فيه من تسلية وأضاعة للوقت وأيضا على سبيل التذكار فى هذا البلد الأوربى الأول الذى قدر لى أن أصل اليه بسلام بعد رحلة بحرية استغرقت حوالى الخمسة أيام تقريبا .

لم أنتظر طويلا . فخرجنا من السينما قبل انتهاء الرواية المعروضه ولم تكن تهمنا كثيرا وأخذنا طريقنا هو إلى السكة الجديدة مرة أخرى مخترقين .

ولعل ذلك فى طريقه الآن .

تحرك القطار فى الموعد المحدد فغادر مرسيليا فى طريقه إلى باريس وكان إذ ذاك يسير بواسطة الفحم والبخار وبالنظر لأن الفحم من أنواع الوقود المتوفر فى فرنسا ويستخرج من مناجمها

أما الآن فان هذا القطار يسير الان بواسطة القوة الكهربائية كانت السرعة تبدو عظيمة جداً حيث كنا نشعر بها والقطار يتهب الأرض نهبا دون أن يقف فى الطريق إلا على محطات قليلة كبيرة وبعد ان يكون قد قطع ساعات طويلة ومر على قرى وبلاد كثيرة مر السحاب ولا ريب فهو القطار السريع الذى يقطع فرنسا من الجنوب إلى الشمال وبرغم سرعته العالية فقد كان مريحا للغاية ومقاعده كلها من الجلد وثيره وأثاثه فخم نظيف حتى فى الدرجة الثالثة أو الدرجه الأخيرة التى يركب عامة الشعب هذا عدا أن عرباته كلها بها صالونات ونظام حجز المقاعد مقدما وكما سبق ذكره وإلا اضطر المسافر الوقوف فى الممشى حتى يخلوا له محل يجلس فيه

وصف قطار مرسيليا باريس

وهذه المقاعد تصلح أيضا لكى ينام عليها الراكب وهو جالس فى هدوء بعد اقفال باب الصالون . على أنه يمكن عادة دفع مبلغ زائد على أجرة التذكرة للحصول على مكان يصلح للنوم والمسمى بعربات النوم واجون لى .

ونظام سير هذا القطار مرتب بحيث يصل المسافر من مرسيليا إلى باريس صباحا وكذلك المسافر من باريس إلى مرسيليا فأنه يصل اليها صباحا حوالى التاسعة تقريبا . وقد أمكن الان بفضل استخدام قوة الكهرباء بدلا من البخار وادخال تحسينات كثيرة قصر هذه المدة إلى عشر ساعات على ما أذكر بسبب السرعة العالية التى بلغتها القطارات الكهربائية عموما .

قضينا طول هذه المدة تارة مستيقظين وأخرى شبه نائمين متكئين على المساند الجلد وأخرى نطل من النافذة الزجاجية المقفلة لنشاهد بين الفينة والفينة قرى كثيرة متناثرة فى طراز أوروبى جميل ينبعث من خلالها أضواء ضئيلة خافته لأنها بالطبع ساعة هدوء شامل وراحة بال .

المشاهد على جانبي الطريق

ونوم خصوصا فى القرى والارياف بل وفى جميع بلاد العالم فلم يكن فى استطاعتنا أن نتميز كل شيء من النافذة والمشاهد التى كنا نراها على طول الطريق تختلف كل الاختلاف عن تلك المناظر المألوفة عندنا فى الارياف ذات النسق والطراز الواحد وأراض خضراء منبسطة لا يرى بها غير القطن أو القمح أو الذرة أو الأرز أو البرسيم وهو غالب المحصول عندنا بسبب طبيعة الأرض .

أما هناك فكنا نرى دائما أراض جبلية وسهول منبسطة وأوديه عميقة وهضاب أو منحدرات وكهوف وانفاق أما من حيث المزروعات فما بين أشجار كثيرة وبساتين كروم وفاكهة مختلفة وسهول منبسطه يظهر فيها كل أنواع الغلات وعادة ما تكون البساتين والأشجار فوق هضاب تشبه ماورد ذكره فى القرآن الكريم كمثل جنـــة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل الخ الآية فالأراضى عندنا كلها تعتمد على ما يصلها من ماء النيل لا عن طريق المطر أو طل السماء .

فتاة باريسية مرحة

جلسنا نتسامر معا و نتجاذب أطراف الحديث وكان يجلس إلى جوارنا فتاة باريسية أخذت تسأل أصدقائى عنى فأخبروها اننى مصرى مسلم فذكرت انها كانت فى اسطانبول وتحب المسلمين نقلوا إلى أقوالها هذه وكنت منشغلا عنهم بالقرأة فى أحد كتب الهندسة وهى تارة تحملق إلى وأخرى تهمس اليهم بكلمات و تبتسم ثم دفعها الشوق . إلى أن تخطف منديلا حريريا كان بارزا من جيبى وهم يضحكون ويقولون لى البنت حبتك قوى يا عبد المنعم إنها تقول لنا أنها تريد أن تتزوجك فلا ترفض وبالطبع فانى لم أكن فى ذلك الوقت منسجما معهم ولا متفقا مع طبيعة أولئك الغربيين وليس عندى متسع من الوقت للتفاهم معهم فبقيت غير ملتفت اليهم وعلى شفتى ابتسامة لما يجرى حولى وهى تحاول التفاهم والاسترسال فى المزاح معى طـــول الوقت أمضى زميلاى شطراً من الوقت يلعبون الورق وكنت .

بساتين الكروم والفاكة

وكنت أضيع وقتى فى القراءه فى كتاب وان لم استذكر منه الا القليل .

وقف القطار عند عدة محطات كبير مثل ليون وجرينوبل وأيفنيون ودخل فى نفق طويل قضى فيه فترة من الوقت وفى الصباح وقف عند محطة لاروشيل حيث نزلنا من القطار وتناولنا فطارا بسيطا مكونا من فنجان من الكاكاو والسميط المسمى كروسان عندهم والركاب معتادون دائما النزول الى تلك المحطه القريبه من باريس وتناول تلك الوجبه البسيطه وقد لاحظت ذلك مرارا خلال كل رحلاتى واسفارى .

وعندما طلع النهار وبزغت الشمس من خدرها وراء الافق استطعنا أن نميز كل شىء حولنا على طول الطريق من تلال وهضاب وسهول وأوديه وبساتين كروم وفاكهة وأشجار باسقة معتدله او متدليه الاغصان على الارض اوكلها مختلفه كل الاختلاف عما عندنا وماشيه وطيور ودواجن من النوع الذى يعيش

ضواحى باريس

بالمناطق الباردة سميته ثقيله الوزن :

وبعد قليل بدا لنا طراز جديد من الفلات القريبه من باريس أى ضواحيها وهى ذات الاسطح المائلة المغطاه بالاتوازوذات طرازات جميله بما يحيط بها من بساتين اغلبها كروم وعنب وتفاح وخوخ وغير ذلك من حاصلات تلك المناطق البعيدة ويبدو أننا لم نمل ونسأم من رؤية تلك المشاهد التى كانت تبدو لنا واضحه جلية بألوانها الزاهية وهندستها البديعه من خلال زجاج النوافذ المقفله وهى تمر امامنا بسرعه البرق والخاطف ومرور السهم فى الرميه وبه

وبعد فتره ابتدأت سرعة القطار تتناقص قليلا قليلا وتتباطأ حتى دخل بنا الى محطة باريس ثم توقف وسمعنا عند ذلك نداءات مختلفه تنبىء بالوصول الى محطة باريس هاهى باريس باريس باريس

الوصول إلى باريس

كانت الساعة قد قاربت التاسعة صباحا على ما اذكر عندما وصل القطار الى محطة باريس — جاردليون وهى أحدى محطات باريس الكبرى وقد وقف بها واستعدينا للنزول الى رصيف المحطه وبعد أن أنزلنا امتعتنا من القطار اتجهنا جميعا وأنا معهم الى الخارج .لم اكلف نفسى عناء فى النظر الى المحطة او القطار الذى نزلنا منه ولا الحركة كلها داخل تلك المحطة الكبرى المسماة محطة ليون. قلم يكن كل ذلك يعنينى بقدرما كنت أفكر فيما سوف افعله لمتابعة سفرى الى لندن بمفردى وخصوصا لاننى كنت على وشك الافتراق من زملائى هؤلاء وربما الى الابد وهو ماتوقعته وكان بالفعل فقد كانت هذه اللحظات التى نقضيها معا فى طريقنا الى باب الخروج من المحطه هى خاتمة المطاف وبادرة الفراق بيننا الى الابد والى غير لقاء

افـــتراقنا

وما كدنا نخرج من الباب الى رصيف الشارع حتى باريس أقبل عليهم جماعة من اخوانهم كانوا فى انتظارهم وقد أستقبلوهم بحرارة وشرف عظيم وأنتهى الامر بينهم الا استدعاء تاكسى يوصلهم جميعاً الى المكان الذى سوف يصلون إليه ونظر الى البيروزميله سام ثم قالوا الآن فالوداع ياعبد المنعم الى اللقاء إلى اللقاء القريب ثم وكلونى إلى حمال أعطوه حقيبتى وقد رفعها الى كتفه وقالوا لى أعطه شيئا قليلا أنه طيب ويظهر أنهم كانوا أخبرونى فى عجالة عن عنوانهم الذاهبين اليه فى باريس فلم أتذكر بالطبع شيئا منه ثم أنصرفوا وافترقنا عند ذلك .

أخذنى هذا الحمال توا ثم هبط بى الى نفق تحت الارض وسرت خلفه حتى بلغنا باب دخول الى محطة أخرى عرفت فيما بعد أنها محطة المترو الذى يسير تحت الارض فى باريس من أولها إلى آخرها.

ركبنا قطار المترو تحت الارض وكان مزدحما والناس تتدافع

خطوط المترو تحت الأرض

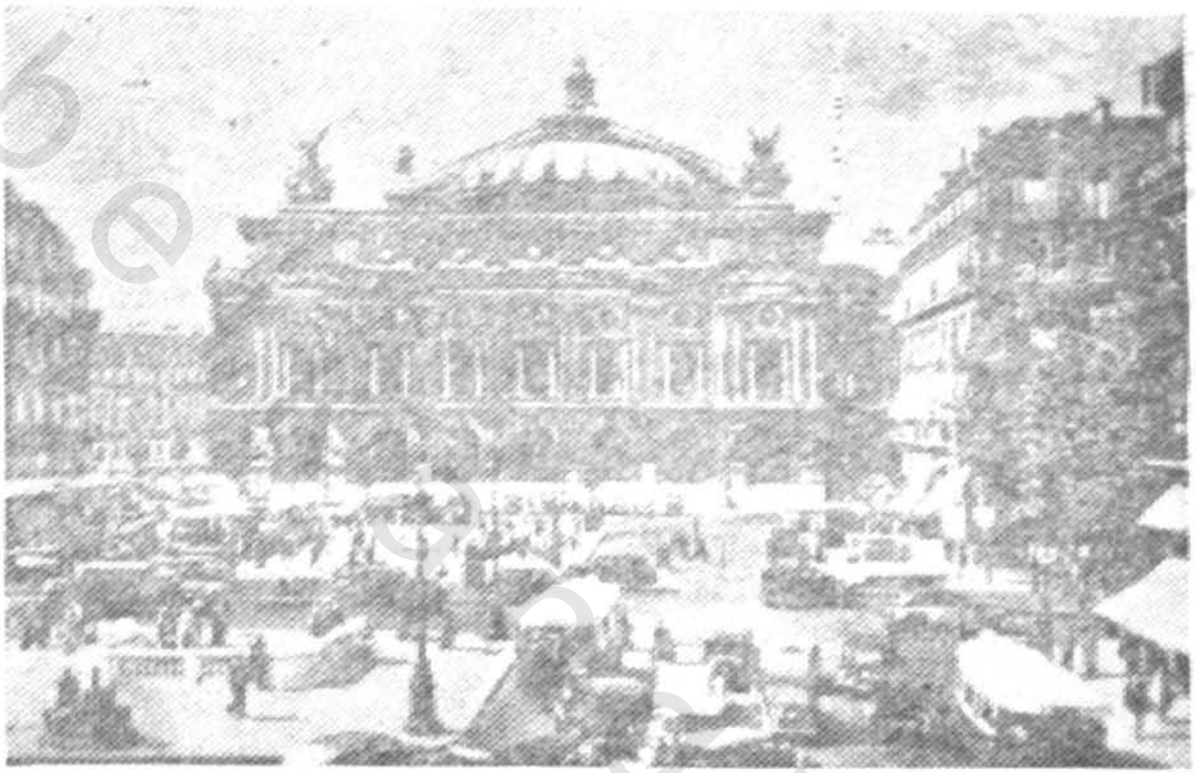

ركبنا قطار المترو تحت الأرض .فى أنفاء طويله

وسنتحدث عن خطوط المترو تحت الأرض سواء فى باريس أو لندن أو غيرها مع المقارنة وبتفصيل فيما بعد . وكان مزدحما والناس تتدافع إلى أنوابه بسرعة قبل أن تقفل أتوماتيكيا ثم أخذا طريقة فى النفق وجعل يتوقف كل برهة على عدة محطات ينزل منها الناس ويصعد غير هم حتى وصل بنا إلى محطة أشار

إلى الجمال عندها وكانت أبواب قطار المترو الواسع تفتح وتقفل أتوماتيكيا .

وسار بي و أنا أتبعه وكان الناس بالطبع يدركون من ذلك أنني غريب وصعدنا السلالم حتى وصلنا إلى الشارع ثم تدخلنا إلى محطة أخرى كبيرة وهو يتقدم الطريق وأنا أتبعه ولا أشير بحركة ولا أنبث ببنت شفة وبعد قليل ووقف بي عند أحـــد الأرصفة وألقى الحقيبة من على ظهره وفهمت منه أن هذا هو .

ألفاظ التفاهم الضرورية

رصيف القطار الذي سوف اركبه ليوصلني إلى ميناء كاليه أو غيرها على شاطىء بحر المانش ثم اتابع سيري عبره الى دوفر ثم منه إلى لندن نهاية الرحلة وتقع كاليه عند الضفة الأولى من بحر المانش أو بوغاز . دوفر كما تقع دوفر عند الضفة الثانية .

بعد ذلك بدأت أتفاهم معه على الأجرة وكنت لا أزال أحفظ بعض كلمات في الفرنسية وهي كلمة كومبيا بمعنى كم تريد كما هي هاوماتش بالانجليزية وبالايطالية كوانتو كوستاوهي .

أول وأبسط ما يحاول أن يحفظه السائح والغريب عند وصوله أى بلد من تلك البلاد عدا بضع الكلمات أخرى تعتبر من الضروريات .

وفجأة رأيته ينطق بكلمة عشرين بالفرنسية فان ـ ثم أتبع ذلك بفرد أصابعه العشرة مرتين زيادة فثرت فى التأكيد ودهشت لهذه المبالغة الخطيرة فى طلب الأجر وأدركت أنه قد استغل كونى غريب بمفردى ولا أعرف الفرنسية فقال ما قال .

حمال باريسى

ظننت أنه ربما يكون أيضا قد أخذ من زملائى حسابه بل أن ذلك ما قد فهمته من كلماتهم الأخيرة لى ومعه أيضا قبل ذلك بالفرنسية مما جعلنى لا الح عليهم فى السؤال والاستفهام .

حاولت أن اظهر له غاية سخطى وغضبى من ذلك بعد أن تفوه بتلك الكلمة التى تدل على منتهى الاستغلال والمغالطة مع شخص غريب واردت أن أعرف منه عنوان أصدقائى ولكنه بالطبع لم يكن يعرف ذلك ولا يهمه كما أن أعراضى عن الفتاة الباريسية جعلها تيأس وتنصرف عنى أخذنا نتشاحن بالاشارة هو يفرد أصابع يده مرتين مشيراً إلى مبلغ عشرين فرنكا وأنا أصر على أن لا أدفع أكثر من خمسة فرنكات مع تأكدى من أن أصدقائى ربما

أعطوه الأجرة مقدما . كان الفرنك يعادل فرنك صاغ واستمر التشاحن والجدل بيننا وتشبث كل منا برأيه ثم انتهى إلى التحكم فى مكاتب السياحة القريبة ولكنى كنت أقابل بعدم الاكتراث والاغضاء عنى وسماع بعض كلمات أعطه كل ما يطلبه لا مناقشة

استغلال وتعصب

وأخيراً ذهبنا إلى مكتب قضائى المحطة حيث تحادثت مع واحد هنا بالانجليزية واقنعنى بضرورة أعطائه مبلغ ١٢ فرنكا لأنه أضاع كل الوقت معى

وفى النهاية بعد أن خرجنا من ذلك المكتب اتفقت معه على اعطائه ١٢ فرنكا كان قد رضى بها قبل ذلك والواقع أننى كنت فى غنى عن ذلك الحمال لو أن أحداً دلنى وأشار على ركوب أى وسيلة من وسائل المواصلات التى توصلنى إلى المحطة الثانية وبذلك أكون قد وفرت على نفسى كل هذا المبلغ المبلغ والمتاعب لقيتها خلال تلك المشاحنات والمجالالات والمحاولات غير المجدية مع أشخاص يبحثون عن أجنبى يكون فريسة أو ضحية يستغلونه إلى أكبر حد ممكن دون مناقشة أو سؤال أو استفهام .

وبديهيا فانى لم أكن تلك الصحية المنتظرة رغم عدم معرفتى جيداً للغة الفرنسية أو التفاهم والتحدث بها ولو قليلا ـ كان بودى لو استطعت البقاء فى باريس .

معلوماتى السابقة عن باريس

كان بودى لو استطعت البقاء فى باريس ولو يوما واحداً
جوب فيه شوارعها الكبرى وميادينها الهامة بل كان باستطاعة
ميلاى أن يكرسا شطرا من وقتهما ليطوفا فى حول باريس قبل
تابعة سيرهما واختفائهما فى أحد احيائها العديدة لولا انى
لهمتهما من بادى الأمر اضطرارى إلى متابعة السير فورا إلى لندن
حضور الامتحان ا ـ ـ

الفرصة التى كان يتمناها وينتظرها غيرى بفارغ الصبر ويضحى من أجلها بكل شىء :

كانت معلوماتى عن باريس لم تزد عما قرأناه فى كتب الجغرافية من قبل من أن أهلها مشهورون بسلامة الذوق بالاضافة إلى ما كنا قرأناه فى القصص والروايات البوليسية والغرامية من أنها مدينة كل نسائها جميلات ورشيقات ولكنهن مستهترات

وكذلك ما جاء فى كتاب باريس وملاهيها وبنات الهوى فيها وقد استرسل مؤلفه فى الحديث عن العشق والغراميات إلى ابعد حد وفى غفلة من كل رقابة أو آداب عامة .

وجوب مجاملة السائح والغريب

ولكن ذلك الحادث المفاجىء جعلنى أنسى ما كنت قرأته وعرفته عن باريس وأهلها على الاطلاق. أثار كل ذلك غضبى وحنقى على باريس وكل من فيها فلم أصادف منهم أحداً إلا وكان يريد منى أن أعطيه المبلغ كله بلا مناقشة .

ولعلها غلطة كبرى من صديقاى البير وسام تسببت من تسرعهم فى الذهاب إلى محل اقامتهم بالتاكسى مباشرة . تفاهمت أيضا بعد

ذلك مع الحمال على أن يأخذنى إلى مطعم قريب من المحطة الجديدة جاردى نور ـ محطة الشمال ـ قبل دخولها والانتظار إلى ما بعد العصر بدون طعام أى إلى الساعة الرابعة مساء . وحمل الحقيبة بعد أن تراضينا وسبقنى فدخل إلى مطعم كبير نظيف بالقرب من محطة ووضع الشنطة ووقف إلى جانبي وكانت الساعة حوالى الحادية عشر صباحا .

حضر الجرسون وابتدأ يسألنى عن طلبى وأخذ يسرد .

فى مطعم باريسى

يرد على قائمة الأطعمة التى عنده وأنا لا أكاد أفهم منها حرفا واحداً وأخيراً بعد أن عجزت عن التفاهم معه خطر فى ذهنى أن أنطق بكلمة فيش أى سمك بالإنجليزية ويظهر أنه فهمها فأومأ إلى بالايجاب ثم انطلق الى المطبخ فيأمرهم باعداد طبق السمك المذكور .

ولكنى بعد ذهاب الجرسون وقفت أتمعن فى المطعم وأنظر حوالى فأدركت أنه مطعم فخم لا يجدر بى أن أتناول طعامى فيه وأنا لا أعرف مقدما أى مبلغ سوف يطلبه وخصوصا بعد

فى طريقنا إلى كاليه

ما لحقنى اثناء الانتقال من محطة إلى أخرى دون أقل تفاهم أو فهم للموقف .

أومأت إلى الحمال بيدى وكان لا يزال واقفاً منتظراً وأفهمته أن يحمل الحقيبة ويتبعنى إلى الخارج فحملها على كتفه وخرج معى وقبل أن يلحظ الجرسون أو أى أحد آخر بالمطعم فيحاول اقناعى بالبقاء .

وصادف أن وقت الغذاء لم يكن بعد قد حان وقد استطاع الحمال بالاشارة أن يفهم منى ما كنت أقصده من انه مطعم كبير وغال طبعا ثم توجه بى مرة أخرى إلى المحطة .

وضع الحقيبة عند الرصيف الذى سوف يقف اتجاهه القطار الذاهب إلى كاليه وأعطيته العشرة فرنكات التى اتفقت معه عليها فأخذها شاكراً ثم انصرف .

بقيت أنا جالساً على مقعد وإلى جانبى الحقيبة انتظر القطار على مضض ويظهر أنى كنت اتفقت مع الحمال على شراء خبز من أحد المحال ولست أدرى ماذا حدث بعد أن جاء القطار قبل

قطار باريس كاليه

الساعة الرابعة بقليل فحملت حقيبتى وركبته ثم تحرك مغادراً باريس فى طريقه إلى كالية .لم أندم على تركى باريس هذه المرة فقد كنت أشعر فيها بالوحشة والضيق وتمنيت لو أنى لم أقض فيها كل هذا الوقت الطويل دون طعام أو شراب نتيجة لعدم معرفتى التحدث بالفرنسية وبسبب سوء التفاهم الذى لقينى لأول مرة وطأت قدمى أرض باريس .

وأن كنت قدقضيت فى باريس عمراً طويلا أكثر مما قضيته فى أى بلد أخرى من بلاد العالم . وخاصة بالحى اللاتينى حى الطلبه والجامعة وبالقرب من مسجد باريس كما سيأتى ذكره فيما بعد خلال رحلاتنا القادمة إن شاء الله .

التفت يمينى فرأيت الى جانبى راكبا يبدو من سحنته أنه أنجليزى — حيانى وحييته وأبتدأنا نتحدث عن الطريق وعن الطقس وعن المحطة الذاهب كل منا اليها .

وكانت هى فى الحقيقة بولونى لا كاليه كما هو مذكور فى تذكرة كل منا . واتفق معى أخيرا على أن أنبهه عند وصول القطار إلى المحطة المذكورة خشية النعاس والغفلة .

ميناء كاليه

أخذنا نتجاذب أطراف الحديث وفهمت منه أنه ايرلندى يشتغل موظفا فى شركة الزيت العراقية وبدر منى فى أثناء الحديث كلمة الامير فيصل فرد على ينبهنى قائلا الملك فيصل كان. حديثنا بالطبع باللغة الانجليزية وبنفس اللغة التى تعودناها فى مصر لا اللغة الانجليزية الدارجة. كان عائدا الى بلاده الاصليه فى بلفاست لقضاء اجازة بعد أن أفهمته خط سيرى وأننى ذاهب الى لندن مباشرة مع عدم معرفتى أحد أواى شىء فيها فطمأننى كثيرا بأنه سوف يقوم بمساعدتى وارشادى بقدر استطاعته .

مضى بنا الوقت والحديث وكان بعض الاولاد من تلاميذ المدارس يصعدون القطار وتبدو منهم شقاوة كثيرة وجرى وقفز داخل العربة وفوق المقاعد ولعب فى الأبواب والنوافذ مع فتحها وقفلها بشدة مما أثار دهشتنا ودفعنا الى الضحك من هذا النوع من الالعاب الصبيانيه الغير مألوفة لنا وبعد فتره وقف القطار عند آخر محطة له وكان الظلام يجعله أثناء سير القطار والضوضاء المستمره تحول بيننا وبين التعرف على المحطة المطلوبة ونزلنا وفى ظننا أنها محطة بولونى التى هى على بوغاز المانش ايضا

فى الفندق

ولكنها كانت محطة كمالية وخرجنا منها الى الميناء .

ركبنا التاكسى وأخبرناه بأن يوصلنا الى الميناء لكى نركب منها المركب عبر بوغاز المانش .

وقبل أن نقترب من ميناء نصحنا سائق التاكسى بأن لافائدة من السفر الآن والمراكب كلها متوقفة عن العبور نظرا لتغير الطقس فجأة وهبوب العواصف .

فقبلنا نصيحته واتفقنا معه على أن يوصلنا الى فندق متوسط نقضى فيه ليلتنا ثم نقوم فى الصباح الى الميناء بعد أن يكون الجو قد تحسن .

وعاد بنا من طريق الميناء الى البلد وكان الظلام لايزال حالكا شديدا والمطر غزيرا جدا فلم نكن نتبين شيئا قط مما حولنا .

وقف بنا عند أحد الفنادق بكاليه واسمه فندق فيكتوريا على ماذكر وحاسبه زميلى ثم دخلنا الفندق حيث قابلتنا سيده عجوز وسألتنا عن طلبنا هل نريد غرفة لكل واحد منا أو غرفه واحدة بسريرين؟ بمبلغ ٣٥ فرنكا فقط

فأتفقنا على أن نأخذ غرفة واحدة بسريرين تخفيفا للنفقات ثم طلبنا منها ان تجهز لنا عشاء ايا كان ذهبنا الى الحجرة المذكوره

تناول العشاء فى الفندق

فى الفندق فوجدنا بها سريرين نظيفين معدين لنا وفوقهما الاغطيه الضرورية الكافية . وضع كل منا حقيبته الى جوار السرير وجلسنا نستريح قليلا حتى يتم تجهيز العشاء وبعد وقت قصير دعينا الى طعام العشاء .

وفى الحق فأنى كنت محتاجا أشد الاحتياج إلى تناول الطعام فقد مضى على طول النهار فى باريس وكذا منها إلى كاليه بالقطار حتى الساعة التاسعة مساء لم أذق فيه شيئا كما لو كنت صائماً فى رمضان وكم من رمضان صمنا فى باريس

كان الطعام الذى أعد لنا بعضا من الدجاج والبطاطس والفاكهة وذلك على ما أذكر الآن بوجه التقريب عدنا بعد ذلك إلى غرفتنا حيث مكثنا نتحدث برهة ثم اضطجع كل منا فى سريره وأغمض عينيه ونام نوما عميقا وأستيقظنا فى الصباح الباكر ثم تناولنا طعام الافطار بالفندق وخرجنا بعد ذلك لنستوثق من موعد قيام المركب ووصلنا إلى الميناء واستفسرنا من هناك عن مواعيد قيام المزاكب فعلمنا أنه لن تقوم المراكب فى ذلك اليوم مطلقا بسبب استمرار تغير الطقس تغيرا شديدا ورداءته واشتداد العواصف فى المانش وهياج البحر هياجا خطيرا

رداءة الطقس وهبوب العواصف

وأخذنا بعد ذلك نتمشى قرب الميناء وكانت العاصفة شديدة جدا وأذكر أننى عندما اقتربت من الرصيف قليلا شعرت بأن العاصفة لشدتها توشك أن تقتلنى

وتقذف بى إلى البحر فانزعجت لذلك وأسرعت بالابتعاد ثم أخذنا نجوب الميناء قليلا ثم عدنا إلى الفندق وما كدنا نصل إلى بابه حتى وجدنا تجمهرا كبيرا وزحاما شديدا عليه فذهبنا إلى داخله فاستقبلنا صاحب الفندق بقوله لقد حجزت لكم غرفتكم اليوم أيضا ولم أشأ ان اتصرف فيها اثناء غيابكم بالرغم من شدة الزحام والتقاتل على الفندق للحصول على سرير للنوم بأى ثمن وفعلا فان المراكب قد امتنعت عن عبور المانش ذلك اليوم بسبب شدة العواصف مما كان له رد فعل فأمتلات الفنادق للقليلة المجاوره بالميناء بالمسافرين ولم يعد هناك موضع لقدم . والواقع أننا كنا قد أنتوينا فى الصباح مغادرة الفندق لركوب المركب مباشرة دون انتظار وقبل أن نتعرف حقيقة الموقف فشكرنا له حسن صنيعه ثم ذهبنا إلى غرفتنا حيث مكثنا نتحدث فى الموقف وماذا كان سوف يحدث لو أننا لم نجد غرفة للمبيت

أستمرار هبوب العواصف بشدة

طلبنا من صاحب الفندق أن يجهز لنا طعام الغذاء حيث تناولناه كالمعتاد وهو على كل حال لا بأس به

كانت الحالة مضطربة فى الميناء والمسافرين يهمون على وجوههم للبحث عن مكان أو ملجأ يلجؤون إليه حتى الصباح وجاء الليل ثم جلسنا نتناول العشاء وجرى بنا الحديث عن البلاد التى جاء كل منا منها وكان صاحب الفندق يجلس معنا فحدثنا عن السباح القديم الاستاذ اسحاق حلمى وهو أول سباح مصرى عبر المانش كان ينزل دائما عنده فى الفندق وذلك بمناسبة علمه أننى مصرى وقد أخذ يحدثنى عنه بعض الشىء وعن الصداقة التى كانت تربطهما ذهبنا بعد ذلك إلى فراشنا وكان الجو باردا جدا والعوصف شديدة ولم نلبث أن نمنا كالمعتاد وفى الصباح . استيقظنا وخرجنا بعد تناول طعام الافطار لنواصل سيرنا جهة الميناء ولنعرف على مواعيد قيام البواخر ولكننا فوجئنا بتعذر السفر ذلك اليوم أيضا بسبب استمرار العواصف وهياج

شدة هياج البحر

غرق وتكسر بعض المراكب

البحر هياجا شديدا وما نجم عن ذلك من كوارث مروعة فى البحر وغرق بعض المراكب وتكسر غيرها مما تناقلته الصحف كلها فى فرنسا والعالم أجمع حتى فى مصر كان هناك حالة فزع واضطراب وهياج شديد من ناحية المسافرين بسبب توقف حركة الملاحة وعبور المانش وكان الكل متألم أشد الالم بسبب ماحدث فقد ترتب عليه اكتظاظ الميناء بجموع المسافرين فى انتظار الفرج وانقشاع تلك الغمامة وهدوء العاصفة ولكن بلا جدوى وجاء الليل وتكررت كارثة المبيت وعدم وجود أى مكان لتلك الجموع من المسافرين حتى ولو كان اصطبل أو ممشى بدون سقف يستطيع المسافر أن يرقد فيه حتى الصباح كما سمعت ذلك من كثير ممن كانوا يلتفون حولنا ويسألوننا عن أى وسيله أو ملجأ يستطيعون البقاء فيه طول الليل مهما كلفهم ذلك من ثمن وفى الواقع لقد كان ذلك حادثا فريدا فذا فى نوعه .

فى انتظار الفرج

لم يسبق له مثيل ولقد نجانى الله منه ومن عواقبه التى كانت ستكون أسوأ ما يكون لولا لطف الله بنا وفضله علينا وكان فضل الله علينا عظيما خصوصا فى ذلك الجو البارد والشتاء الزمهرير

عدنا إلى الفندق وكان الناس يحومون حوله ويتزاحمون إليه وهم يبحثون عن أى غرفة أو سرير يتاموون عليه .

تناولنا العشاء ومكثنا خلاله نتحدث عن الحالة وكان يشترك معنا صاحب الفندق وهو يقص علينا كثيرا مما يجرى فى المدينة من شدة الضيق وكثرة التزاحم المسافرين هذا عدا بعض الحالات التى كان يراها بنفسه بحثا عن مبيت دون جدوى .

آوينا إلى فراشنا كالمعتاد وكانت هذه ليلتنا الثالثة وخشينا أن يطول بنا المقام ونحن على تلك الحالة وفى الصباح التالى خرجنا كعادتنا نتفقد الحالة ونعاين الموقف عند الميناء ونبحث عن باخرة تحاول العبور

هدوء العاصفة وتحسن الطقس

وأخيراً وقد كنا بعد الظهر حينما سمعنا أن الموقف تحسن قليلا عما دعى أحدى البواخر أن تجاذف وتعبر المانش أسرعنا إلى الفندق حيث أخذنا أمتعتنا منه وشكرنا أصحابه على كرمهم وحسن معاملتهم لنا بعد أن دفعنا لهم ما علينا من الحساب .

ثم توجهنا توا إلى الباخرة حيث صعدنا اليها مع جموع المسافرين الذى اشتد أقبالهم وتدافعهم نحوها من كل حد وصوب مجاذفين بحياتهم ومخاطرين بأنفسهم ولولا أن هناك مصالح هامة وأزمات شديدة لما قدم أحد منهم على تلك المغامرة وفرط فى نفسه وكذلك الحال بالنسبة لى وقد كنت مضطراً إلى المخاطرة بنفسى خشية من ضياع الوقت والمال والفرصة التى كان على أن أنتهزها وهى فرصة التقدم للامتحان والالتحاق بجامعة لندن مباشرة .

من كاليه إلى دوفر عبر المانش

كانت هذه الرحلة على قصرها من أعجب الرحلات وأغرب المخاطرات ولا زالت عالقه فى ذهنى كلما تذكرت المانش وهو فى الصيف يكون هادئا مريحا خصوصا خلال مسابقات عبوره

كانت الساعة قد قاربت الرابعة بعد الظهر عندما أقدمت أحدى البواخر الكبرى الراسية بميناء كاليه على القيام بعبور المانش وأعلنت ذلك رسمية بعد انقضاء ثلاثة أيام تقريبا لا تجرأ فيها أى مركب على تلك المجازفة بسبب شـــدة العواصف والأنواء وتحركت السفينة خلال ذلك الخضم الهائج والبحر المؤاخر وهى تجرى بنا فى موج كالجبال بسم الله مجرها ومرساها وبسرعة هائلة لتقاوم الاهتزاز بقوة الأمواج ولكنها كانت رغم ذلك تهتز بنا وتتمايل وتتأرجح وكانها ارجوحة فى الهواء لافى الماء والموج يغطى سطح سفينة كلها فيغسلها بكل ما عليها لا ينقطع ولا يفتر عن ذلك دقيقة واحدة بل ويزداد كل لحظة شدة هؤلاء مما جعلنا نرتعب ونتوجس خفية من هولة ونخشى مصيرنا المحتوم فى غمرة تلك الأمواج المطبقة على السفينة من كل جانب .

دوار البحر

هبط المسافرين إلى جوف السفينة اتقاء الموج ودوار البحر الذى كان أشده بحيث لم ينج منه إلا النزر اليسير يعدون على الاصابع كنت من بينهم ولمناعة كانت عندى وفترة وقد آثرت

الباخرة تشق عباب المانش

الجلوس على ظهر السفينة من البقاء فى جوفها حيث منظر المسافرين وهم يدخلون وتيقابلون جميعهم على طول الخط رغم تعاطيهم بعض المشروبات ضد دوار البحر واتقاء شره ولكن بلا جدوى فقد كانت الحالة غير عادية مكثت جالسا على مقعدى فوق ظهر السفينة منطويا على نفسى وأنا شبه نائم أو تائه مغمى عليه من هول ما أنا فيه وأحاول تحمله فقد كان الموج يطبق على ويغسلنى من رأسى إلى أخمص قدمى ويهبط على سطح السفينة فيغسلها كلها ثم اندفع بشدة إلى البحر مرة أخرى وهكذا .

ولم أكن أشاهد غير بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من تحته موج لا يرى من خلاله أى شىء بل قد مرت لحظات كان يخيل إلى فيها أن السفينة قد غاصت بأكملها وسط اليم ولم يعد هناك أى سبيل إلى نجاتها كنت جالسا على كرسى كالسكران وحولى بعض أفراد قلائل يهبطون ويصعدون فى هرج ومرج وهلع وفزع من هول كانوا يرون ويقاسون .

الوصول إلى دوفر

مضت فترة سمعت بعدها أصوات وهمسات كثيرة استطعت أن أفهم منها أن السفينة قد اقتربت من ميناء دوفر وهى على بعد دقائق منه ثم تلا ذلك بعد قليل وصول الباخرة إلى الميناء بسلام بعد أن كاد اليأس يستولى على الجميع ويقضى فيه على كل أمل ورجاء فى النجاة والوصول إلى بر السلامة

فحمدت الله على ما أنعم به على وتفضل فلم يحدث لا قدر الله بشىء وكان زميلى الايرلندى قد هبط إلى جوف السفينة .

كان زميلى الايرلندى قد هبط إلى جوف السفينة لا يلوى على شىء ولا يفكر إلا فى نفســـه فلم أره مرة ثانية إلا عندما وقفت السفينة وهدأت الحالة ورست بسلام عند ميناء دوفر .

نزلنا إلى البر فى طوابير وكنا نسير معا ولم نلبث أن انفصل كل منا عند الفرز حسب التعليمات فقد مر هو من طريق ومررت أنا من طريق آخر وكنت انتفض من تأثير البرد وأرتعش من شدته .

الوصول إلى لندن

وأخيرا التقينا مرة ثانية بعد أن كدنا نفترق بسبب شدة التضييق على لكونى مصرى وكانوا يعاملوننا معاملة شاذة بالرغم مما قدمته لهم من وثائق رسمية تثبت حضورى للالتحاق بالجامعة وبصفتى طالب .

أخذنا نعدو ونسرع فى عدونا لنلحق آخر قطار يسافر الليلة ولم يكن به إلا الدرجة الأولى والثانية وقد اتفق زميلى مع المفتش على دفع فرق التذكرتين أثناء غيابى ووقف ينتظرنى .

وصل القطار بنا إلى لندن « محطة فيكتوريا » قرب منتصف الليل تقريبا وأسرعت أنا وزميلى الايرلندى يحمل كل منا حقيبته بالخروج من المحطة بعد أن نزلنا من القطار ووصلنا عند الباب الخارجى .

وبالطبع فقد كان هو مرشدى فى الطريق وما كدنا نقف لحظة قبل العبور من رصيف الشارع إلى الرصيف المقابل له وكانت حركة المرور على أشدها وإذا بقبعتى تطير فجأة من فوق

حادث سقوط القبعة

رأسى وتقع فى منتصف الطريق بين هذا السيل الذى لا ينقطع من السيارات وفى شارع من أكبر شوارع لندن ويظهر إنى لم أكن قد انتبهت للفرق بين الجو داخل المحطة وخارجها وخصوصاً خلال شهر ديسمبر أى فى اوائل الشتاء .

أيقنت أن القبعة قد ضاعت وسوف لا استطيع الحصول عليها بتاتا . ولحظ زميلى الايرلندى ما قد حصل فأنتظر حتى توقفت حركة المرور فى الاتجاه الذى كانت تسير فيه إلى الاتجاه الاخر ثم أسرع فجذب القبعة من الأرض بسرعة وعاد بها إلى ثانيه فاذا بها كما هى يكاد يكون لم يصبها أى سوء قط سوى أنها بالطبع تكسرت وتسخت .

أعدنا تنظيفها قليلا مما يكون قد علق بها ثم وضعتها مرة ثانية على رأسى وكان البرد لا يزال شديداً جدا خصوصا فى تلك الساعة المتأخرة من الليل .

بيت الطلبة الكبير

أثر فى نفسى هذا الحادث الأول الذى استقبلتنى به لندن وأن كان تافها ولأول مرة أصل فيها تلك العاصمة الكبرى عقدنا العزم على أن نأخذ طريقنا مباشرة إلى الجهة التى يوجد بها بيت الطلبة الكبرى وهو كما قيل لنا بناء ضخم شاهق وفى حى كبير من أكبر أحياة العاصمة . وذلك حسبما كان معنا من التعليمات والتوصيات التى تزودنا بها من مصر قبل سفرنا ركبنا الأتوبيس أو كما يسمونه البض بعد أن أرشدنا اليه أحد رجال البوليس حيث وصلنا الى تلك الدار العالية وهى تقع فى شارع تونهام كورت رود الكبير والذى سيأتى ذكره فيما بعد وفى مناسبات عدة .

وصلنا الى باب الدخول ومنه سرنا الى حيث وجدنا الادارة هناك تقدم زميلى وتفاهم معهم وأخذنا نلح وكان الوقت متأخرا عليهم وأخيرا قبلوا أن نقضى ليلتنا هذه فى الدار حتى الصباح نظرا لشدة ازدحام الدار بالطلبة وعدم وجود أمكنة خالية رغم اتساعها وضعنا أمتعتنا بالغرفتين الصغيرتين اللتين خصصا لنا

احدى مطاعم لندن

لنا مثل سائر الطلبة الموجودين فى تلك الدار الكبيرة واقترح على زميلى الايرلندى أن نذهب بعد ذلك لتناول عشاء خارج الدار فى المطاعم الخاجية الكثيرة فوافقته وذهبنا للبحث عن المطعم المطلوب فى جهة قريبة من الدار واستطاع أن يستدل هو على المطعم بطريق السؤال والتحدث مع كل من قابله سواه من المارة أو البوليس وسرعان ما استطعنا أن نصل الى غرضنا بأسهل ما يمكن وبمنتهى اللطف والادب .

دخلنا المطعم وجلسنا إلى منضدة وطلبنا لكل منا عشاء لم يكن هناك سوى سمك وبطاطس مقلى وهو طعام مألوف للعشاء فى لندن وكان لهذه الوجبة قيمة محددة حوالى ٥ ر ١٢ قرشا لكل منا أى ٥ ر ٢ شلن عندهم

عدنا بعد ذلك الى الدار ويظهر أن زميلنا الايرلندى كان يود ان يتمتع فى لندن بعض الشىء قبل سفره إلى بلده بلفاست وكنا قد جلسنا فى احد المقاهى بعد الطعام وأخذ هو

لذ وطاب أحد مقاهى لندن

يشرب ماطاب له من النبيذ أو البيرة وقد تناولت نوعا من الفازوزة

وما كدنا نخرج إلى الطريق حتى التف حوله اثنين من الشبان البلطجيه فى لندن وفيها من البلطجيه مثل مافى غيرها من بلاد العالم وأخذ يحبذان له السير معهما ليعرفاه بكل مافى العاصمة من مباهج ودور لهو واستمرا يلحان عليه ويغريانه بكل طريقة ممكنة وأستطاع أن يفلت منهما بصعوبه وهو يعدهم بأنه سوف يتقابل معهم فى الغد ويكون تحت تصرفهم وقد اعتذر بوجودى معه

داخلنا الدار وأوى كل منا إلى فراشه فى هدوء وسلام واتفقنا على أن نلتقى فى الغد للقيام بما يلزم ومتابعة خط السير صحوت فى صباح اليوم التالى وقد جاءنى زميلى الايرلندى ومعه زميل آخر امهذب من قبل دار الطلبة وحسب الاتفاق حملت حقيبتى وسرنا معنا حيث أوصلنا الزميل الجديد إلى فندق آخر للطلبة تحت أشراف بيت الطلبة الأول وقد منى لهم

وهذا الفندق عبارة عن بنسيون للنوم مع تناول وجبتين

فى بنسيون الطلبة

حاول اليوم وهما الإفطار والعشاء أما الغذاء فعلى الطالب أن يتناوله فى أى جهة يتفق وجوده فيها أثناء عمله .

استقبلتنى ادارة البنسيون بالترحيب وأخذنى إلى الغرفة المخصصة لى حيث وضعت حقيبتى بها ثم نزلت لتناول طعام الافطار مع زميلى الايرلندى وبعد أن أنتهينا من ذلك خرجنا معا حيث استفهمنا من رجال البوليس فى الشوارع عن الطريق الموصل إلى جامعة لندن ونوع المواصلات اللازمة له افترقنا على أن نتقابل مرة ثانية قبل سفره إلى بلد بلفاست وركبت الاتبيس حيث أوصلنى إلى قرب الجامعة وهى الجهة المسماه سونكنسجتون وهناك استطعت الدخول إلى مقر السكرتاريه حيث تفاهمت معهم بما يلزم واعطونى الباقية الخاصة بدخول الامتحان الذى كان مقررا عقده فى يوم ١٣ ديسمبر .

عدت ثانية إلى البنسيون بنفس الطريق الذى جئت منه بعد السؤال والاستفسار كالمعتاد ذهبت لتناول الغذاء فى مطعم بيت الطلبة وكان ثمن الوجبة محدد وقدره شلن ونصف أى حوالى سبعة قروش ونصف

افتراقنـــا

بحثت عن زميلى الايرلندى الجديد فعلمت أنه قد سافر إلى بلده . لم اسف على فراقه كثيرا بعد أن انتهت مهمته وأن كان لم يدفع لى بعض الحساب

خرجت فى اليوم التالى أسير فى بعض الشوارع القريبة منى ثم دخلت أحد المحال التجارية حيث أبتعت معطفا خفيفا ووتر برعرف لان المعطف الذى كان معى لم يعد يصلح البلد كبير مثل لندن وأشتريت بعض الياقات والكرافتات حيث عدت بعدها إلى البنسيون وتناولت طعام العشاء أخذت أتعود شيئا فشيا على المعيشة فى هذا البنسيون الجديد للطلبة وأن كان مفروضا أن يكون كل من فيه من فئة الطلبة وقد أختلطت وتعرفت بمعظم من فيه

وتقدم منى ذات يوم طالبين أحدهما انجليزى والآخر هولندى بالجامعات أيضا وعرضا على خدماتهما ومساعدتهما لى فى تعرف الحياة فى لندن من كل نواحيها .

وأستطعت التعرف أيضا على طالبين آخرين من جزر الهند العربية كانا أيضا يستعدان لدخول الجامعه مثلى

اصدقائى الجدد من الطلبة

وكان اسم أحدهما ستراتكر والآخر مستر ولز وهما من الملونين وكانا اقدم منى خبره ومعرفة بالحياة فى انجلترا وخاصة اللغه بأعتبارها لغتهم الأصلية ظاهرا .

وقد توثقت بيننا أواصر المودة وأخذنا مع بعضنا عدة مناظر خصوصا فوق مبنى الطابة الرئيسى بتوتنها كورت رود وكنا نخرج للسير معا فى شوارع لندن أحيانا نركب المترو تحت الأرض وأخرى مشيا على الأقدام خصوصا فى الأحياء القريبة منا وهى جهة جريت رسل سكوير واستون ماركت وقريبا من المتحف البريطانى والكلية الملكية كنجز كوليدج وقد تعودنا وهى اختراق تلك الجهة مارين بالقرب من كنيسة سانت بنكراس الشهيره حيث تصل بنا إلى الطريق الكبير الذى سبق الحديث عنه

والتقينا فى أثناء سيرنا بصديق جديد شديد السود من جهة ساحل الذهب جولد كوست وكان يضع طوال الوقت فى فمه غليونا يبيه يدخنها ومعظم الانجليز يدخنون البايب وإن كانوا لا يستغنون عن شرب السجائر ولها شهرة فى البلاد إلى تشرب كما السجائر المصرية شهرة عالمية فى كل بلد كنا نصل اليه كما سيأتى ذكره فيما بعد .

فى لندن

وفى لندن يفضلون البيت حيث يستعملون التبغ المعروف الخاص بها وفى فرنسا الآن طائفة كبيرة من الناس تدخن البيب خصوصاً الطلبه بالحى اللاتينى وهم خليط من الفرنسين والأجانب من كل دولة وكثيرا ما كنا ننتقد الانجليزية والشعب الانجليزى وما يقولونه عنا جميعا نحن الأجناس غير البيضاء وغير الأوربيين وأفكر أن صديقى هذا مستر تكر أستغل يوما التليفون العمومى مدة طويلة بينما كان هناك طابور من الناس واقف فى انتظار دوره ولقد سمعت منهم تذمرهم هذا وان لم يواجهوه بتلك الحقيقة سياسة منهم كما أنهم لا يطلقون على السود كلمة أسود وفى أيامنا هذه يحسنون معاملة السود خصوصا فى باريس ويتحببون اليهم كثيرا وان كانت هى فى الواقع سياسة منهم ومن الانجليز باعتبارهم من أبناء مستعمراتهم ويتزاوجون معهم .

وهو ما شهدته ولمسته بنفسى خلال رحلاتى الاخيرة ولعل الكثيرين عندنا يعرفون ذلك أيضا واذكر اننا ذهبنا ذات مره إلى بيت الطلبة الكبير وكما هو معروف تشرف عليه وتديره جمعية دينية كبرى ولها فروع فى الامبراطورية التى أصبحت وبعد الحرب العالمية الثانية متداعية منحله مثلها مثل فرنسا وايطاليا من قبل .

عيد الميلاد فى لندن

(الكريسمس)

وكان الوقت وقت أعياد الميلاد والتقيت هناك بأحد طلبة بعثة الحكومة المصرية وقد دعانى للبقاء فى غرفته خلال عطلة عيد الميلاد لسفره للفسحة فى سويسرا وكان اسمه عفت ويدرس فى كلية الزراعة فبقيت بعض الوقت لا أدرى يومين أو أكثر ثم اضطررت لداعى السفر والعودة إلى مصر تسليم الغرفة للادارة ولم اتقابل معه بعد ذلك قط. وخلال اعياد الميلاد يحتفل الانجليز بالبقاء قابعين داخل المنازل يستضيفون بعضهم بعضا وهم فى طعام وشراب وسمر طول الوقت وتبقى معظم الشوارع فى لندن مقفرة خالية من الحركة والمارة الا من جنود البوليس وبعض المواصلات الضرورية وما لاتخلو الحال من وجوده وذهبت أنا وزميلى السابق لتناول الطعام كضيوف ووقف الكثيرون يتحدثون عن بلادهم وكانت مفاجأة لى وألقيت كلمة صغيرة كنت أعرف الانجليزية بدرجة لابأس بها وكان أول مانجحت فيه مع الرياضة بتفوق فى امتحان الجامعة الرياضة أحد العلوم التى كنت دائما متفوقا فيها .

كلمة قصيرة فى الحفل

كلمة قصيرة لم استعدلها ولكنها كانت مناسبة وخير من لاشىء وكما يقول عليه الصلاة والسلام فى حديث شريف خير الكلام ماقل ودل وقد سر الجميع منها كل السرور وتمنوا المزيد وكان لها أثرها فما كدت أجلس حتى التف حولى عدد كبير منهم يطالبوننى بالتوقيع بامضائى فى مفكراتهم الخاصة (الاوتوجراف) كما أخذوا يستفسرون منى عن مصر وبالاخص أهراماتها وآثارها القديمة ولها شهرة عالمية يحسدنا عليها غيرنا من الامم . وكذلك عن أبو الهول والفراعنة وغير ذلك ولو كنت أعرف من قبل ماهو متبع فى ذلك الحفل لاعددت موضوعا واسعا خصوصاً فى الآثار المصرية وهو ماتلافيته فيما بعد ووقف طالب هندى يتحدث عن بلاده بظلاقه عظيمة وبلغة انجليزية عالية مدة طويلة بدرجة لم أعهد لها نظير الاعندما كنا فى باريس وأثناء احتفال جمعية الطلبة المصريين وقد انابت عنها الاستاذ ادمون تويما للتكلم بالفرنسية بعد أن اعتذر أحدهم وكان اسمه الدكتور عوض عن التحدث ثم تكلم الاستاذ ادمون فأجادا جادة تامة وبلغة فرنسية

أحد دور التمثيل فى لندن مسرح الدومنيون

عاليه شرح بها صدورنا وتركت أثرها فى نفوسنا ولا ريب فقد كان الاستاذ يتقن الفرنسية كل الاتقان وقد تلقاها فى المعاهد الفرنسية بمصر .

ولقد ذهبنا فى مساء ذلك اليوم بعد تناول العشاء إلى دار المسرح الكبير المسمى مسرح الدومينيون وكنا بمجموعة من الطلبة وقد جلسنا فى مقاعد ممتازة بقيمة مخفضة وكانت الرواية مضحكة للغاية على طريقة شارلى ولوريل وهاردى — وكثر الحديث فيها عن نظرية النسبيه لاينشتاين وقد أخذ رجل يشرحها لامرأة جاهلة بطريقة فكاهية أخذت أقضى معظم الوقت فى مشاهدة لندن من أولها الى آخرها وبالاخص أثناء النهار فقد كان الجو لايزال باردا جدا بالليل ولكونه مشاء وكان جهاز التدفئة بالبنسيون الصغير من النوع الاتوماتيكى الذى يضع فيه الشخص العملة فيستمر موقد ربع ساعه أو نصف ساعة أو ساعة حسب ما يوضع فيه من النقود ثم ينتهى ويعود الواحد منا يشعر بالبرودة مرة ثانية ويوجد من طرق المواصلات الرئيسية فى لندن الأتوبيس ويسمونه الباص والمترو تحت الأرض ويسمونه اندرجروند .

طرق المواصلات فى لندن

ويوجد من طرق المواصلات الرئيسية فى لندن الأتوبيس ويسمونه البص والمترو تحت الارض ويسمونه أندرجراوند موتور تيوبز أو تيوبز فقط اختصارا .

أما الترام فقد الغى من لندن كما الغى بعد ذلك من باريس وهو لا يزال بروما حتى اليوم ولكن بغير طريقته فى مصر وهو آخذ فى التحسن الآن بدرجة ملحوظة .

والترام فى مصر ومعظم وسائل النقل والمواصلات ليست مما يشرف حتى اليوم وفى حاجة إلى كبير عناية والشوارع لا تحتمل كل هذه الحركة والضغط الشديد الواقع عليها وشدة ازدحام كل طرق المواصلات بدرجه لاتطاق وحبذا لو استحدث فى مصر نظام المترو تحت الأرض ولو خط رئيسى واحد يقطع العاصمة من أولها إلى آخرها عند شبرا البلد بعد توسيع شارع شبرا حديثا .

وكذلك قطارات الضواحى القريبه من مصر حتى لا تصبح القطارات والسيارات مزدحمة بركاب ومسافرين لمحطات قريبة لاتزيد على الاثنين أو الثلاثة حتى فى وسائل النقل الداخلى

وصف عام لمدينة لندن

صورة تمثل حى بيكاديلى سيركس بلندن

ولندن مدينة كبيرة وهى بالطبع أكبر من باريس ومن برلين ومن روما ويزيد عدد سكانها الآن عن ثمانية ملايين نسمة ويقرب عدد سكان باريس من خمسة ملايين ولكنهما مدينتين كبيرتين وفى اتساع زائد وقد بلغ عدد سكان القاهرة الآن حوالى ٣ مليون ولكنها الآن لا تحتمل كل هذا العدد لصغرها وحاجتها إلى الاتساع ولعل ذلك من الأسباب التى أدت إلى إعادة تخطيط القاهرة وهدم أحيائها وشوارعها القديمة والاتساع فى الداخل والخارج بهذه السرعة والنشاط الذى نلاحظه هذه الأيام وبصورة

واضحة ملموسة .

ويقسم نهر التيمز الذى يشبه نهر النيل عندنا لندن إلى شطرين عظيمين يطلق عليهما ايست ووست إنده الجانب الغربى والجانب الشرقى والجانب الغربى ويشمل لندن الحقيقيه ويتصل الجانبين بعدة كبار أهمها كبرى لندن التى يسمى بالانجليزية لندن بريدج وهو الذى من أهم كبارى لندن وأعظمها حركة وقناطر وست منستر آبى وواترلوو كنسنجت وغيرها .

وهناك كبرى البرج ويقع برج لندن عند مدخله وله شهرة عظيمة

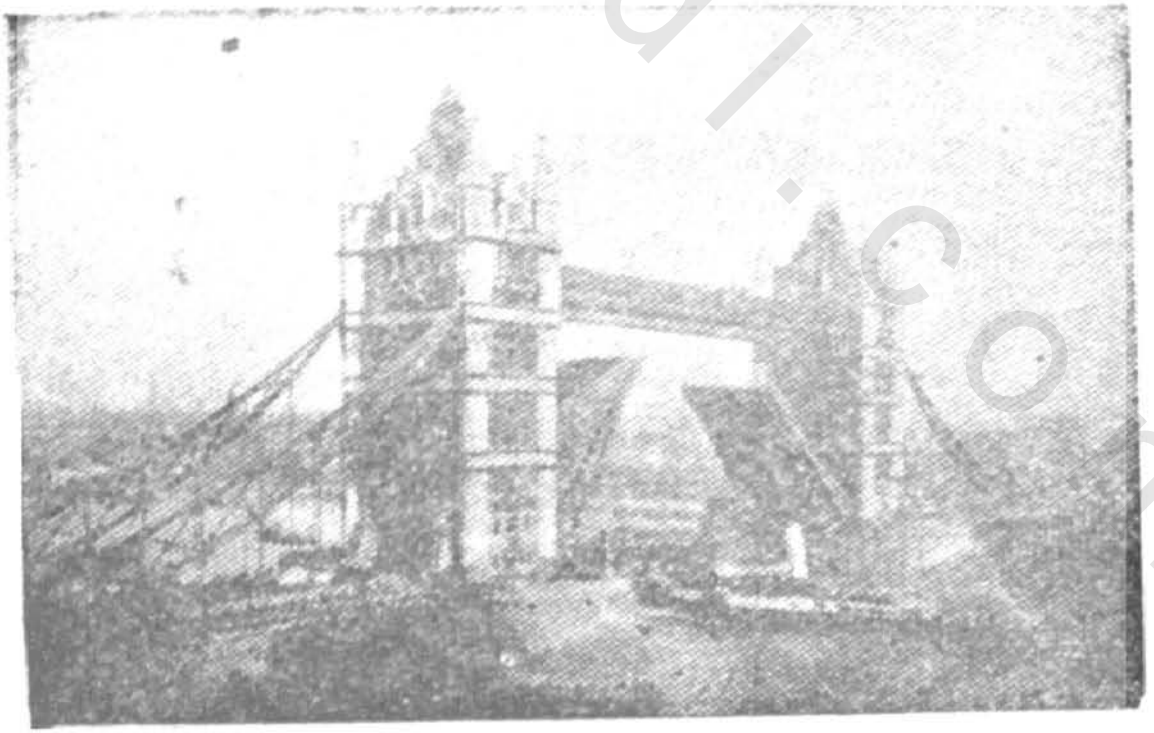

صورة كبرى البرج بلندن

نشاط اليهود فى لندن

عظيمة والجانب الغربى وتوجد به الأحياء الاستقراطية ومناطق الحركة والنشاط والحكومة والمحال التجارية الكبرى والبنوك والشركات والفنادق ومعاهد العلم المختلفه وبالأخص جامعة لندن أما الجانب الشرقى فهو أحياء شعبية وطنيةوبها كثير من الجاليات الأجنبية والأحياء اليهوديه المكتظة ولليهود نشاط وسياسة وتغلغل فى التجارة والحركة المالية فى لندن وكذلك فى باريس فانهم يندسون ويتغلغلون فى كل حركة ونشاط وتجارة وثقافة وهذه حالتهم فى معظم دول الغرب وأمريكا ما عدا المانيا النا سرعت فطردتهم فى عهد حكومة هتلر .

وقد تنبه الشرق العربى كله الآن لحركتهم ونشاطهم ومحاولتهم غزوه والاستيلاء عليه بعد الاستيلاء على أرض فلسطين العربية وهم يعدون الآن جميعهم العدة لاستراددها ثانية مما كلفهم ذلك من ثمن .

وبالأخص فى عهد الحكومة الحالية (حكومة الثورة والجمهورية)

أصدقائى من المصريين

وبينما كنت أسير ذات مره فى أحد شوارع لندن الكبرى المسمى شارع أكسفورد تقابلت مصادفة مع بعض زملائنا المصريين وكان اثنين منهم بعثه من خريجى الهندسة قسم الميكانيكا والكهرباء وهما من أسرة القشيرى بمصر وقد سبق تلاقينا بالقنصلية الفرنسية فى مصر قبل يوم السفر وأن لم نجد فرصة للتحدث وذلك أثناء الحصول على تأشيرة المرور وهما الآن على ما أذكر دكتوران فى الهندسة ويشغلان وظيفتين كبيرتين بوزارة الأشغال

وكان معهما ثالث تخرج معهم واسمه الأستاذ عبد ربه ولم يكن بعثة بل على نفقته الخاصة ولعله صار بعثة حكومية فيما بعد وقد أخذنا نتحدث بعض الوقت ونتذاكر أيام كنا فى مصر وفى كلية الهندسة وقد التقينا بعدها بالجامعة خلال الامتحان ومن ذلك الحين لم أرهم ولم ألتق بهم ثانية حتى اليوم .

متاحف وحدائق لندن الكبرى

ولندن مملوءة بالمتاحف الكثيرة مثل متحف التاريخ الطبيعى والمتحف البريطانى ومتحف الشمع والمكتبة الكبرى ومتاحف كثيرة أخرى عديدة وبها من الحدائق والمتنزهات والغابات الكثيرة

مثل كنستجتن وجرين وسان جيمس وريجنت وهايد بارك وهى حديقة كبيره

كان يكثر بها الرقص والغناء وملتقى العشاق وطلاب الملذات عدا اجتماعات الاحزاب والنقابات والاتحادات وهى متسعة جدا ولعلها قد تحسنت

صورة تمثل أحد شوارع لندن

الآن من حيث الوجهه الاخلاقية ومحاربة الرزيلة . وهناك أيضا حديقة الحيوان الكبرى وهى من أكبر حدائق الحيوان فى العالم ويسمونها ذو اختصاراً لكلمة ذو لوجيكال جارون وتقع فى حدائق ريجنت بارك التى سبق ذكرها ويشاهد الانسان فيها كل أنواع الحيوان التى فى العالم وما هو غريب منها كل الغرابة كلها يخطر على باله ولا ريب فقد أفادت الامبراطورية العتيقة

حديقة الحيوان بلندن

من اتساعها القديم فى الحصول على جميع الحيوانات الغريبة والمختلفة وكذلك من كل فرع من فروع الحياة والنشاط الاخرى

وهى تصادف هوى كبيراً لدى الاطفال ولدى الكثير من شعب لندن ورجاله و نسائه وأطفاله وخصوصا لاستعمالهم كثيرا من الحيوانات الاليفة مثل الفيل والجمل والحمار وكذلك هواية القرود والنسلنيس . وهى هوايات تكاد تكون عالمية حيث يقدمون لهم بعض الاطعمة الخفيفة مثل البسكويت والفول والشيكولاته وأن كانت ممنوعة وكذلك

الدب الأبيض وأنوع من القردة الشهيرة القريبة الشبه من الانسان مثل الغوريلا والشمبنزى والأورانجوتانج وهى التى يقيم على أساسها داروين نظريته المعروفة أصل الأنواع والحلقه المفقوده والتى يزعم خلالها أن أصل الانسان قرد وهى مزاعم لم تتحقق

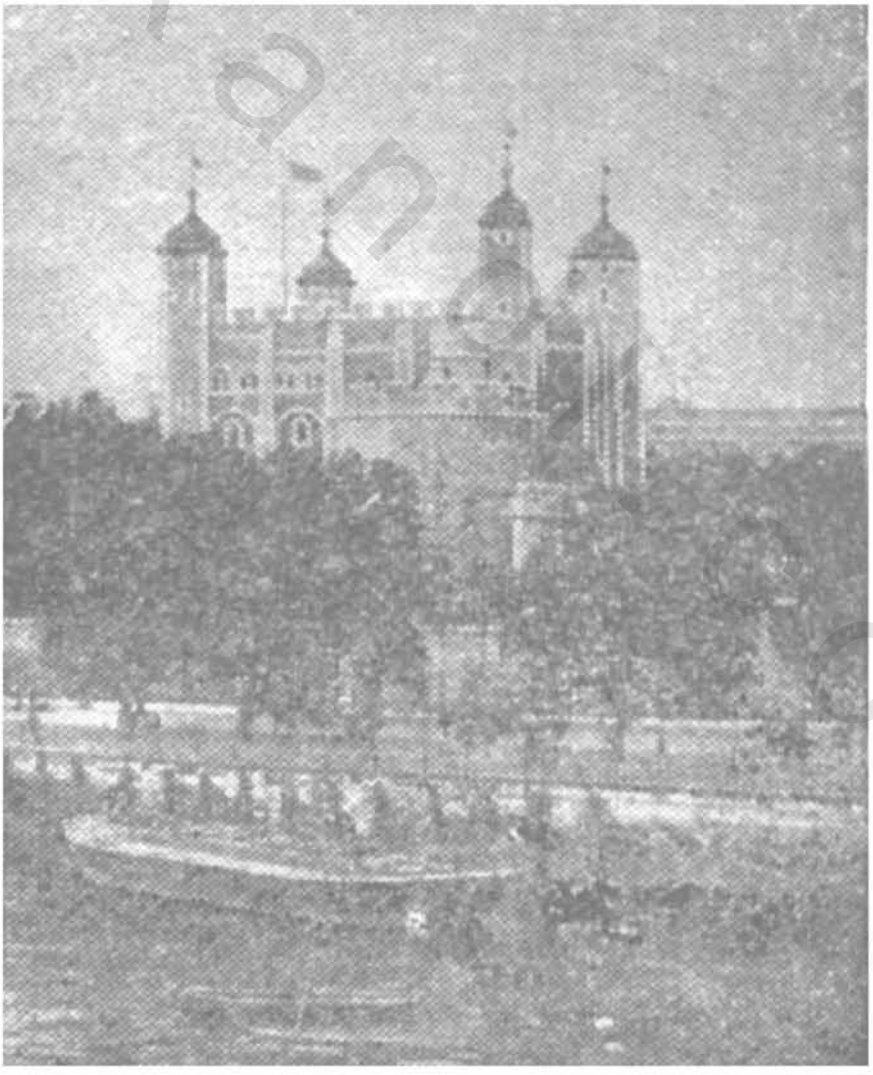

برج لندن

ولن تتحقق ويهتم الناس أيضا بمشاهدة الحيوت الكبيره المفترسا مثل الأسد والنمر والفهد وهى من الأنواع الممتازة التى حسن اختيارها والدب والذئب والثعلب ويمتاز بفروه الناعم الجميل وذيله الطويل المنقوش . وهناك أيضا هواية الدببة البيض الناعم تبدو شبه أليفه حيث يرمون إليها بعض المأكولات الخفيفه الحال بالنسبه للقرده مثل البسكويت والفول وغيره .

قصور لندن التاريخية

ويهتم الانجليز بتناول الشاى وحفلات الشاى والقهوة وان كانوا لايميلون كثيرا إلى ذلك اللون من المقاهى المكشوفه على قارعة الطريق كما هو الحال عندنا ويمارسون الرياضه ويتابعونها فى الاندية الرياضيه مثل كرة القدم والسله والتنس والملاكمه والمصارعه والشيش والسباحه وركوب وسباق الخيل وإلى غير ذلك .

ويهتم السائح فى لندن بمشاهدة أقوى مايستلفت النظر فيها وكما هى عادة السواح عند دخولهم إلى أى بلد جديد فيهتمون

بزيارة ومشاهدة آثارها وقصورها التاريخيه . مثل قصور بكنجهام وسان جيمس ووندسور وكنسنجتون وهى من قصور لندن الملكية الكبرى ومنظر الحرس الملكى فى ثيابهم الغالية وقبعاتهم العاليه المكسوة بالريش وهى بلاد لاتزال تؤمن بالمظاهر والتقاليد والتغنى بالعظمة ولكنها اليوم قد انتهت وأوشكت على الزوال ولم تعد الامبراطورية المرنه التى لاتغيب الشمس عنها .

صورة تمثل المؤلف بلندن

كنائس وشوارع لندن الكبرى

منظر كنيسة سان بول

وهناك ايضا دار البرلمان مجموعة الكنائس الكبرى القديمة العهد مثل كنيسة وستمنيستر ابى الشهيرة وكنيسة سانت بول وسانت بنكراس وهى التى كنت أمر عليها كل يوم اثناء سيرى من البنسيون الى بيت الطلبة فى طريق تو تنهام لتناول طعام الغداء ومقابلة بعض الاصدقاء .

ومن هناك أخترق شوارع لندن الكبرى مثل شيرنج كروس وكنجس كروس ودونتج ستريت أو اكسفورد ستريت

مشاهير الرجال

وميدان ترافلجا حيث يوجد تمثال نلسون أميرال البحر العظيم وميدان واترلو حيث يذكرنا بدوق ولنجتن الذى أنتصر على نابليون فى محاولته الثانيه والأخيره لاستعادة امبراطوريته الخطيره بعد فراره من جزيرة الباوقد كاد ينجح فى التغلب على ولنجتن لولا قدوم بلوخر القائد الالمانى من الخلف . حيث كان فى انتظاره وقد قال كلمته المشهوره فى التاريخ بلوخر او الليل . فكان بلوخر هو الذى رجح كفة ولنجتن فى تلك الموقعه الشهيره موقعة وترلو وإلى جانب رجال الحرب رجال الأدب وفى مقدمتهم شكسبير مؤلف القصص الشعبية العظيمه . وأن كان هناك فى شك كبير فى نسبة تأليف تلك القصص الشعرية إليه وهذا التراث العظيم الذى رفع من مكانة الأدب الأنجليزى ورجاله ولا يتسع بنا المقام الآن للتحدث عن شعراء انجلترى غير شكسبير ، مثل بيرون وشيرلى وشوسر وجولد سميت وبيكون وغيرهم

وكتابها مثل تشارلز ديكنز وولتر سكوت وثاكرى وهاجرو وبرنارد شو وكونان دويل وغيرهم.

على هامش الكتاب والأدباء عندنا

وندع التوسع فى ذلك إلى رحلتنا الثانيه التى سنتحدث فيها بأسهاب عن هذه الموضوعات وغيرها مع مقارنة امثال اولئك النوع من الكتاب والأدباء سواء فى انجلترا اوفرنسا وما خلفوه من تراثهم القصصى العظيم وذلك النوع من التأليف والقصص المعاصر الذى نشاهده فى بلادنا والذى للاسف لم يزل يحدث عن موضوعات هزيله تافهه لا تتغير ولا تخرج عن التحدث عن الحب وثوراته العنيفة

وبابطاله الذين يحاكون قيس وليلى وروميو وجوليت والاغانى المبتذله وقصص الف ليله وليله هذا عدا سيل من الاقتباس والترجمه مع الاحتفاظ بذلك الطابع الغريب الذى لاهو بالشرقى ولا بالغربى حتى يلتمس له العذر وكذلك الاهتمام الزائد باللغة العامية بدل العربية لوجهة نظر خاطئة ستضيع علينا اللغة العربية وتعمل على محوها وطيها فى زوايا النسيان تحت ستار الفن واهله فى الوقت تحت الذى نحن فى مسيس الحاجة إلى توحيد اللهجة العربية فى جميع البلاد العربية .

مساجد لندن وباريس

ولنعد الآن إلى موضوع الحديث عن أشياء أخرى فى لندن عدا الكنائس وهى عديدة وقد انفق عليها ببذخ وأسراف كبير زائد عن الحد . والانجليز معظمهم بروتستنتى المذهب . ويوجد عدا ذلك جامعة لندن التى تقع فى جهة حديثة كتسينجتن وسيأتى الحديث عنها وقد أقيم لها مبان شاهقة وكذلك مسجد ضواحى لندن ويقع فى ضاحية ووكنج القريبة من لندن ويمكن الوصول إليه بواسطة أحد قطارات الضواحى وقد أمكن الآن اقامة مسجد آخر داخل مدينة لندن نفسها وقد الحق به معهد للثقافة الاسلامية حيث أن المسجد الاول لا يسهل الوصول إليه لبعده جداً حتى ولا يوم الجمعة . على الاقل حيث تكون صلاة الجمعة واجبه وفكرة انشاء هذا المسجد الجديد تشبه فكرة مسجد باريس الواقع فى قلب المدينة بالقرب من حديقة النباتات الشهيرة المعروفة باسم جردان دى بلانت وأيضا على مسافة قريبة من الحى اللاتينى أو حى الطلبة وجامعة باريس وكانت الحاجة ماسة لإنشاء مسجد بالحى اللاتينى نفسه وبالقرب من الجامعة على صورة مجمع ضخم فى طراز عربى بلا اهتمام زائد بالمئذنة

برقية إلى مصـــر

وبعد عدة أيام من اقامتى فى البنسيون شعرت بأن ما معى من النقود أو شك أن ينفذ قبل الموعد المحدد وعادة البنسيون المذكور وغيره من الفنادق والبنسيونات عموما أن يقبض الاجر مقدما كل أسبوع وقدره جنيهان .

وخشيت أن يحل الاسبوع الثانى فيحل معه موعد الدفع وليس معى ما يكفى أن أدفعه لذلك .

ولم أكن أعرف الاجراءات المتبعة وخيل الى أنهم سوف يلقون بى على قارعة الطريق اذا لم أدفع المبلغ المطلوب فورا وخصوصا بالليل والبرد شديد جدا لا يطاق حتى ولا فى غرفة النوم فكيف به فى عرض الطريق ولقد انتابنى من جراء ذلك وساوس كثيره ومخاوف وأرق وما كاد يطلع النهار حتى كانت قد أختمرت فى رأسى فكرة ارسال تلغراف اضحى فيه بجزء مما معى من النقود المتبقية كما ارمى فيه بأخرسهم فى جعبتى لعل وعسى

موظف مصرى

وشعرت بأنى لوسارعت بارسال خطاب بطريق البواخر مهما كانت السرعة المنتظره فلايمكن أن يصلنى الرد قبل أسبوعين على الاقل .

فأخذت طريقى توا إلى مكتب التلغراف دون تردد واعددت صيغة تلغراف مختصرة جدا تكفى للغرض المطلوب وبحيث لا تزيد عن كلمة أرسل نقود تلغرافيا بالانجليزية .

أخذت ورقة من المكتب ووضعت فيها الصيغه المطلوبة وقدمتها للموظف المختص وسرعان مارأيته يصوب نظره نحوى لحظه وهو يبتسم ثم ابتدرنى بكلمة أى شبرا؟ . وكنت كتبت فى العنوان فؤاد شارع رفعت شبرا — ثم أخرج لى من الدفتر كلمة شبرا الكبرى أخذ يتحدث معى بعد ذلك فأخبرنى أنه كان يشتغل فى مصر فى ادارة التلغراف ثم انتقل بعدها إلى لندن

السياح واللغة العربية

ثم عادالآن إلى بلاده ولقد ساعدنى فى وضع الصيغه المناسبة مع العنوان كما أمدنى بكل ما يلزم من المعلومات . كان يعرف بضع كلمات عربى لا تزيد عما يعرفه السياح الذين يفدون إلى مصر خلال موسم السياحة فيعلق فى أذهانهم بعض الفاظ يحفظونها بسرعة مثل لفظ بقشيش . وفلوس كثير مبسوط وأنا عاوز فلوس وسلام عليك وسعيده وحبيبى — وصاحبى — وطربوش — وخواجه — ولوكنده — وهاكذا .

وحبذا لو اهتممنا بهذا النوع من الالفاظ وغيرها ووضعناها فى كتيب صغير يوزع على طائفة السياح وليس هو الشخص الوحيد الذى صادفته يعرض على بعض كلمات عربية يرددها كما يفعل الببغاء دون أن يفهم شيئا من معناها فلقد قابلنى بواب بيت الطلبة وأخذ يعيد على مسامعى أغنية قديمه ضحكت كثيرا عندما سمعته ينطق بها ويغنيها بنغمة انجلتزيه وأن كان بالطبع لا يفقه شيئا من معانيها مثل ما كنا نحفظ تلك الاغنية الانجليزية الشهيرة إتذلونج لونج وى توتا برى إتذلونج لونج وى توجو . دون أن يفهم الكثير من معناها

الاغانى العربية فى لندن و باريس

وهى أغنية ياعزيز عينى وأنا بدى اروح بلدى ، بلدى يا بلدى تلك الاغنية القديمة التى كانت شائعة فى مصر خلال الحرب الكبرى فهى تكاد تكون أغنية عالمية وان كانت مبتذلة غير مشرفة ولا تزال عالقة فى ذاكرة كثير من الانجليز والاجانب المقيمين خارج القطر وكان العساكر الانجليز يرددونها كثيرا ويحفظونها كما سمعوها من العمال والمجندين المصريين الذين كانوا يجمعونهم من كل البلاد تحت ستار متطوعى السلطه العسكرية الانجليزية آنذاك أو الرغبية وهو الإصطلاح الذى كان موضوعا لذلك أما أغنية ياأمى ليه تبكى على وأنا مسافر الجهادية فلم تكن من المصلحة ولا تناسب ذلك الوقت الذى ظهرت فيه لاثارة الحمية فى نفوس الشعب فقد كانت حربا عالمية فى غير صالح مصر وفى خلال حرب عرابى باشا كان الشعب يردد أغنية مسيقة . البحر ملان طوابى . يالله انصرك ياعرابى وهى على إيجازها وبساطتها فقد كانت ذات مغزى عظيم وتهدف إلى تقدير الموقف الخطير الذى حل بالبلاد وخير الكلام

الاغانى الشعبيـــة

وعلى ذكر الأغانى فى مصر وخصوصا الشعبية فقد كانت ولا تزال ساقطة مبتذلة تهبط إلى الحضيض وأكبر محرض للدعاره والفسق وفوق أنها كانت مثيره لعواطف الجنس وكذلك القصص والتمثيليات التى تستغل فيها اللغة العامية والحكم والامثال البلدى والنكات والقافية وما إلى ذلك .

هذة الاغانى المثيره والقصص والتمثيليات البلدى التى نحاول ان تعلى من شأنها ونرتفع بها إلى الذروه فى الوقت الذى نهدم فيه اللغة العربية الصحيحة ولقد مرت بالبلاد فترة كانت فيها الاغانى والروايات التمثيلية والسنمائية مبتذله للغاية فاحشة كل الفحش تدفع إلى ارتكاب أحط الجرائم والفجور ومن الأسف فاننا لازلنا نرفع من مقام وشأن من ابتدعوا تلك الفتن وأثاروها فى الشعب ونجعلهم فى مرتبة القديسيين والشهداء بل والملائكة

أننا فى حاجة إلى أشعار وأناشيد حماسية أدبية ثقافية يلقيها الرجال ولندع الأغانى للنساء وفى حدود الأدب

محاربة التبشير والالحاد

وكان البطل المزعوم المهرج أو المغنى يستعرض نفسه بين فصول الرواية خلال الالواح والمقاعد الممتازة ليبحث عن معجبين به أو عن ضحية أو وجه جديد واعجب ما فى الأمر أن تلك الطبقات والفئات كانت ولاتزال وضيعه معظمهم أميين أو نصف أمين لاتفيد منهم البلاد شيئا أكثر من الضرر والتأثير السيء على الوسط والبيئة والنشء والاسرة والمجتمع فضلا عن محاربتهم للدين

والواجب يحتم علينا أن نهدم كل ذلك الماضى الشائن المظلم ونبنى غيره على أساس نظيف طاهر يرفع من شان لغتنا وادبنا ويدعو بنا إلى الفضيلة ومثلها العليا . المستمدة من ديننا القويم

وأن يكون هناك شطر نوع خاص بالرجال وآخر بالسيدات وانتظرت الرد على تلغرافى الذى أرسلته إلى والدى بمصر بطريق ماركونى أو اللاسلكى وفعلا فقد وصلنى الرد فورا وكان من حسن حظى وفيه يطمأننى بوصول المدد ثم تلى ذلك خطاب مسوكر بطريق البواخر وبداخله نقود فحمدت الله على ذلك

الخطاب التاريخى

ولما علمت ادارة البنسيون فيما بعد بما حدث عاتبونى بعض العتاب على تسرعى فى طلب نقود تلغرافيا فقد أخبرونى أنهم كانوا على استعداد لانتظارى وامهالى لحين ورود النقود بالطريق العادى وأن كنت لا أعرف هل كان ذلك حقا أم مجاملة .

ولقد علمت عند عودتى إلى مصر أن التلغراف عند وصوله إلى منزلنا فى مصر أحدث ضجه وتأثيرا شديدا ولقد كنت أرسلت خطابا كما سبق الاشارة إلى ذلك ولم يكن قد وصلنى بعد أى رد ولا على التذكرة التى كنت أرسلتها من مرسيليا مما أزدادت له مخاوفى ووساوسى ولقد وصلنى الرد بعد ذلك على خطابى الأول وكذا على التلغراف والحمد لله فانى لازلت محتفظا بذلك الخطاب التاريخى والتلغراف الذى أرسلته من لندن إلى والدى رحمه الله أشرح له فيه ملخص تلك الرحلة وكذلك الخطابين والتلغراف الذى رد به على يطمأننى ويشعرنى بوصول خطاباتى له وهى مجموعة تذكارية طريفة لها قيمتها عندى سأقوم بنقلها بالزنكوغراف وطبعها سواء فى هذا الجزء أو الذى يليه .

أصدقاء جدد

وكنت قد تعرفت بأصدقاء آخرين بالبنسيون من بينهم صديق قص على قصه حياته وهذه عادة معظم من كنت أقابلهم دائما سواء فى لندن أو فى باريس أو فى أى بلد آخر خلال رحلاتى هذه أو التالية .

وكان يعمل جنديا بالجيش خلال الحرب وتزوج بفرنسية وانجب منها أطفالا صغارا ولم يشأ الذهاب إلى المستعمرات بماهية)

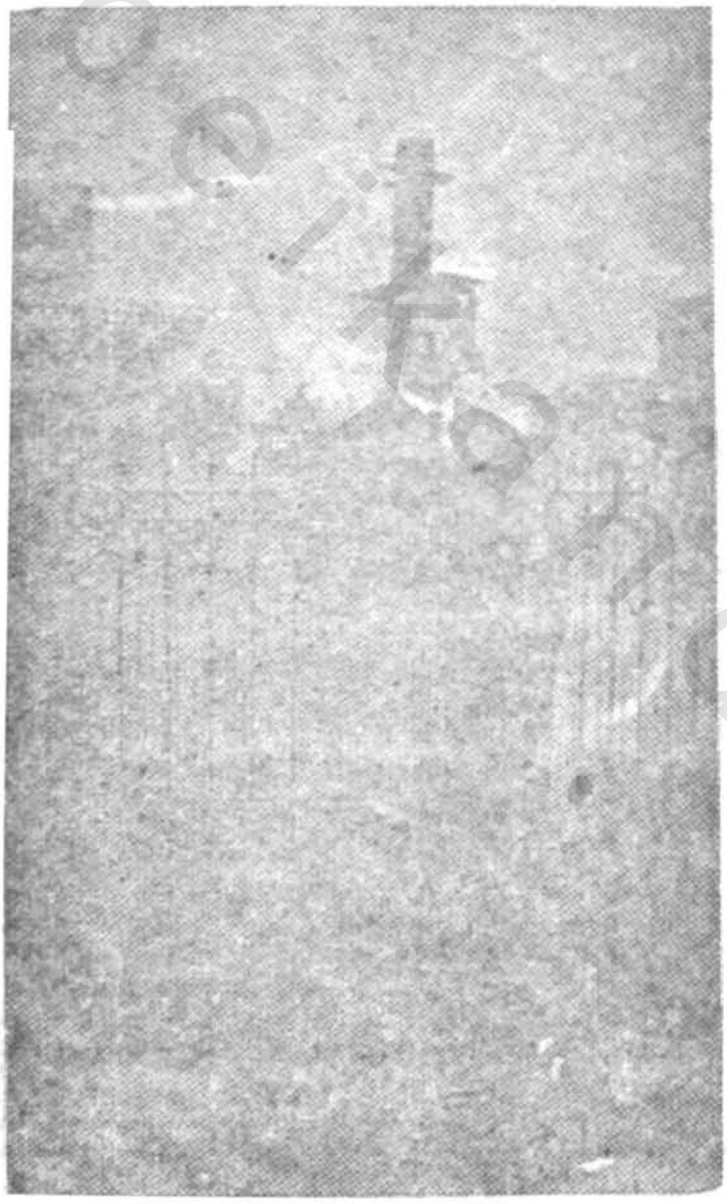

صورة للمؤلف فوق بيت الطلبه بلندن

صورة البص الذاهب إلى توتنهام

كبيرة مغريه واعتزلها وآثر الاشتغال كنقاش فى وطنه بالقرب من زوجته وأولاده الصغار .

وكنا نتقابل عادة فى العشاء حيث يكون مرتديا بذلته السوداء سواريه وهى تقاليد عندهم يتمسكون بها ويحرصون عليها حرصهم على غسل أسنانهم بالفرشاة خصوصا فى الصباح قبل غسيل الوجه وكذا النصف الأعلى من الجسم حتى فى الشتاء وان كانت أسنانهم يصيبها السوس كثيرا رغم ذلك ولعل من أسبابه

شرب السجائر وخصوصاً البيبه وكذا تعاطى المواد الكحولية وهى تقاليد ونظافة ظاهرية بعيدة عن نظافة وطهارة القلب والبدن وهم فى حاجة إلى من يرشدهم إليها .

الوجبه على الطريقة الانجليزية

والوجبه العادية على انطريقه الانجليزية تختلف عن معظم الوجبات فى أوربا وكذلك عندنا لانهم مغرمون يتناول الاطعمه المسلوقة وتتألف الوجبه عادة من طبق لحم بقرى مسلوق أو مشروح وإلى جانب ذلك طبق خضار مسلوق مثل السكرنب والبطاطس والسقرنبيط ثم بعد ذلك أى نوع من الفاكهة أو الحلوى مثل المربى واهتماهم الرئيسى بطبق اللحم لحاجة الجسم الملحة اليه لبرودة الجو إلى درجة شديدة ولتعودهم عليه حتى فى الصباح حيث يتناولون العجه بلحم الخنزير إلى جانب اللبن والزبدة والمربى وعصيدة الكويكر أوتس (القرطم) وهى غذاء وطنى محبوب عندهم والانجليز يحبون البيض أيضا رغم غلائه وكذلك عجة البيض المضاف اليها لحم الخنزير خصوصا فى الصباح وكنت بالطبع أوصى بعدم اضافة ذلك النوع من اللحم الكريه الممقوت الذى يقدسه الافرنج وان كانوا لا يتعاطونه دائما إلا فى أيام الأحاد والأعياد ويصيبهم منه أمراض كثيرة بعضها جسمانى

لحم الخنزير

السجق

وكذلك سجق لحم الخنزير وهو طعام منتشر جدا عند أهل الغرب وتتفاوت قيمته بحسب كمية مافيه من لحم الخنزير النقى وكذلك الجهة التى اشتهرت بصنعه مثل الخمور وجميع أنواع المسكرات لعنها الله وحيث تنسب إلى الجهة التى أنتجتها وهناك نوع من السجق المصنوع من اللحم البقرى مثل يشبه ذلك الذى يباع فى محلات البقاله الكبرى عندنا فى مصر كما يباع عند اليهود والأرمن وغيرهم من أبناء الجاليات الشرقية خصوصا بالضفه الشرقية من التيمز أو الجانب الشرقى بلندن كما أن الأوروبيين عموما معتادون طهى الأطعمة وقليها بدهن الخنزير مثل البيض والبطاطس والسمك وسيأتى الكلام عن بعض أنواع السجق المصنوع من اللحم البقرى ولحم الخيل فى باريس وذلك فى رحلاتنا القادمة عند التحدث عن الأطعمة والوجبات على الطريقة الفرنسية وهى أرقى نوعا من الطريقة الانجليزية وان كانت كلها لا تقارن بالطريقه الشرقية التى كثيرا ما يقبلون على اتباعها فى المطاعم الكبرى ويفضلونها على طريقتهم

عوده الى البنسيون

وصادفنى فى اليوم اليوم الأول من وصولى الى البنسيون عامل شاب وذلك أثناء قرعنا لجرس الدخول أنا وزميلاى وكان أحدهما من قبل بين الطلبة وما كاد الباب يفتح حتى برز لنا ذلك الشاب طويل القامة وقد حيانا باحترام عظيم وكان منحنيا الى الارض وفى يده قطعة من الخيش يمسح بها البلاط وهو منهمك فى ذلك كل الانهماك وبعد قليل من الوقت توثقت علاقتى به وقص على قصته كالمعتاد وهى تتلخص فى أنه خدم الجيش وخصوصا خلال الحرب الكبرى حتى بلغ درجة صول ولف العالم حتى جاء مصر عل ما أذكر من خلال حديثه الذى قصه على ولما انتهت الحرب لم يرض الاستمرار فى الجيش وخصوصا خارج الوطن وآثر أيضا كذلك الزميل السابق العمل الحر على مغادرة الوطن متطوعا فى المستعمرات مهما كان المبلغ الذى سيمنح له شهريا عدا الطعام والشراب والملبس والسكن وما عنالك من مزايا عديدة .

روح الجيل الجديد

مؤتمر الرحالة الدولى

من مزايا ومكافات وترقيات منتظرة على الدوام فاذا فانهت مدة التطوع فانه يستطيع العودة الى وطنه رجل متيسر ذو مكانه.

ولكنه رفض كل هذه المزايا وضرب بها عرض الحائط هو وغيره الكثير وارتضى لنفسه فى وطنه أن يشتغل فى أى مهنة مهما كانت تافهة أو محتقره ويظهر أنها فكرة سرت فى الجيل والاجيال الجديدة سواء فى انجلترا أوفرنسا أوايطاليا أو أى بلد آخر من بلاد العالم خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية .

قلم يعد الكثير منهم يجد تلك المثل العليا التى تتمثل فى تشجيع وتعزيز فكرة الاستعمار والاستعباد والاقبال عليها مهما كانت الفرص والمغريات والوعود الخلابه لقد ارتضى ذلك الشباب أن يعمل فى البنسيون المذكور كعامل بسيط أو بمعنى آخر كخادم ينحنى الى الارض ينظف بلاط الفندق وكذلك الدرج .

عامل برتبة جاويش

ويهبط ويصعد ويؤدى كل ما يطلب منه مهما كان شاق مجهدا وهو فى ذلك طائع مختار ومستريح البال ونسى إذ ذاك أنه فى وقت من الاوقات كان يصول ويجول أثناء خدمته فى الجيش وخصوصا فى مصر وغيرها من البلاد التى كانت ترزخ اذ ذاك تحت عبء الاحتلال البغيض المشئوم . وهو يشتم ويسب ويلعن ويستعمل تلك الالفاظ التى كانوا يعاملون بها تلك الشعوب المغلوبة مثل جون يا بلادى بجر يا بلادى فول أى بلاد الشحاذين والمجانين . نعم لا بد أنه قد نسى وتناسى كل ذلك وأصبح وهو واقف أمامى يحترمنى كسيده ويستجيب لكل ما اطلبه منه بسرعة ودون تردد وأذكر انى ذات مرة احتجت الى كى بدلة وكان اليوم يوم الاحد المتبع وعادة أن تكوى الملابس بواسطة البخار وكان متعذراً كيها بسبب العطلة فما كان منه إلا أن قام بالكى بواسطة مكواة جديد وظفر بالقيمة

جامعه لندن

قضيت فترة من الزمن فى لندن وبعد اتصالى بجامعتها والتقدم لامتحانها الخاص الذى يعقد فى فترات من السنة للحاصلين على البكالوريا المصريه (التوجيهيه الآن) وكذا الدبلومات والدرجات العالية فى الهندسة أو الحقوق أو التجاره أوغيرها وجامعة لندن هذه هى الوحيدة ضمن جامعات العالم التى كانت تأبى الاعتراف بالشهادات المصرية الثانويه أو العاليه للقبول بها بدون امتحان .

وهى وأن كان لها بعض العذر فى ذلك بسبب هبوط المستوى الثقافى الجامعى عندنا اذ ذاك إلى درجة تقرب من مستوى شهادة القبول بالجامعة المذكورة منريكيولين مما كان يظهر بوضوح خلال ذلك الامتحان إلا أنها بالطبع كانت لاتزاعى شعور غيرها من الامم وتهدف إلى التمنت والتحقير من غيرها بها عمداً ولقد تقدم الكثير من طلبة البعثات الحكومية لهذا الامتحان الخاص ورسبوا فيه وحرموا من الالتحاق بالجامعة المذكورة وقد عادت فاعترفت بالدرجات الجامعية .

انتهاء الرحلة الأولى

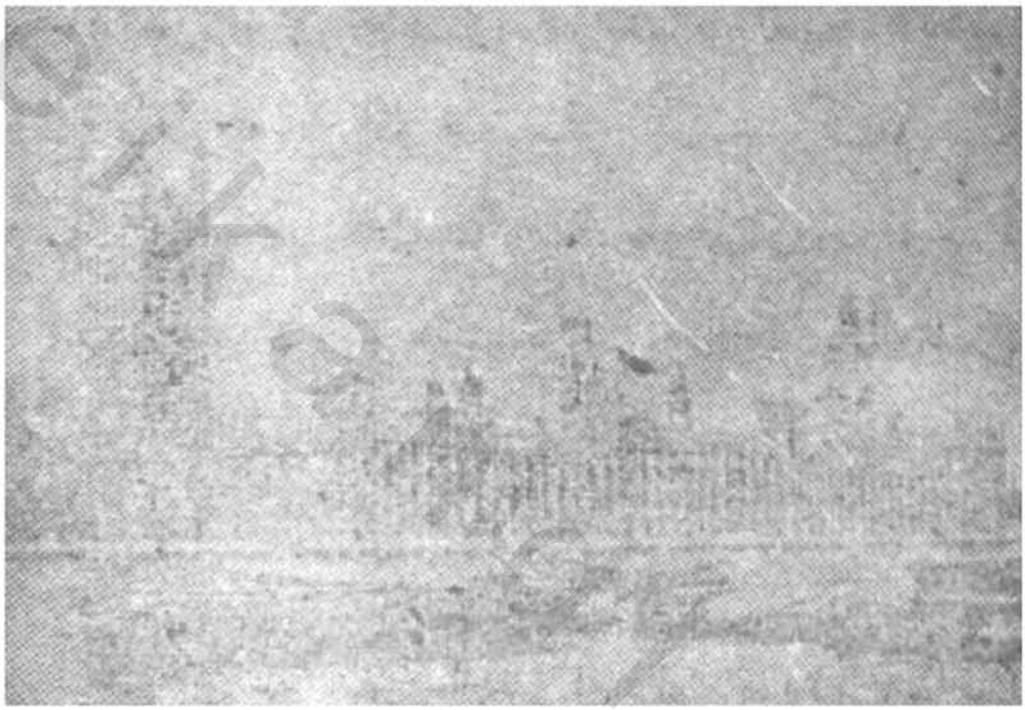

صورة تمثل دار البرلمان الانجليزى

لم تطل اقامتى بلندن فقد جدت من الظروف والاحداث ما اقتضى عودتى فوراً إلى أرض الوطن الحبيب بعد غيبة مفاجئة كانت الأحوال تقتضي منى الاقامة على طول الخط لاتمام دراستي سواء بجامعة لندن أوأى جامعة أخرى مثل كمبردج أو اكسفورد أو غيرها وان كانت لاتشترط شروطا خاصة مثل جامعة لندن مشروع الجامعة الاسلامية لنشر الثقافة العليا الجامعة فى مصر والخارج

أرسل لى والدى يستعجلنى الحضور والاسراع فى العودة فلم أجد بدا من الاستجابة وتلبية الدعوة دون امهال بعد أن اطمأن لى العيش والحياة فى لندن واستتب لى الأمر فيها وتعرفت على البلد من أولها إلى آخرها وكثر لى فيها من الاصدقاء والمعارف ما كاد يلهينى عن التفكير فى الوطن والاهل وينسينى ذكر الاحباب والاصحاب ولو أن الجو كان لايزال باردا جدا لأن فصل الشتاء ونفقات المعيشة واسعار المواد الغذائية مرتفعة للغاية وباهظة لها فى مصر .

تذكرة سفر للعودة

ذهبت إلى شركة كوك فأشتريت منها تذكرة سفر للعودة طبقا للتعليمات التى أوصانى بها والدى بخطاب مسجل بداخله حواله على الشركة المذكورة حملت حقيبتى فى يدى وأخذت طريق فورا الى محطة فكيتوريا (محطه لندن الكبرى) بعد أن ودعت جميع أصدقائى ومعارفى وركبت القطار الذاهب إلى جهة البوغاز .

وصلت إلى ميناء آخر غير ميناء دوفر ويسمى نيوها يفن ثم ركبت الباخرة عبر المانش ولم يكن شديد الهياج كما شهدته فى المرة

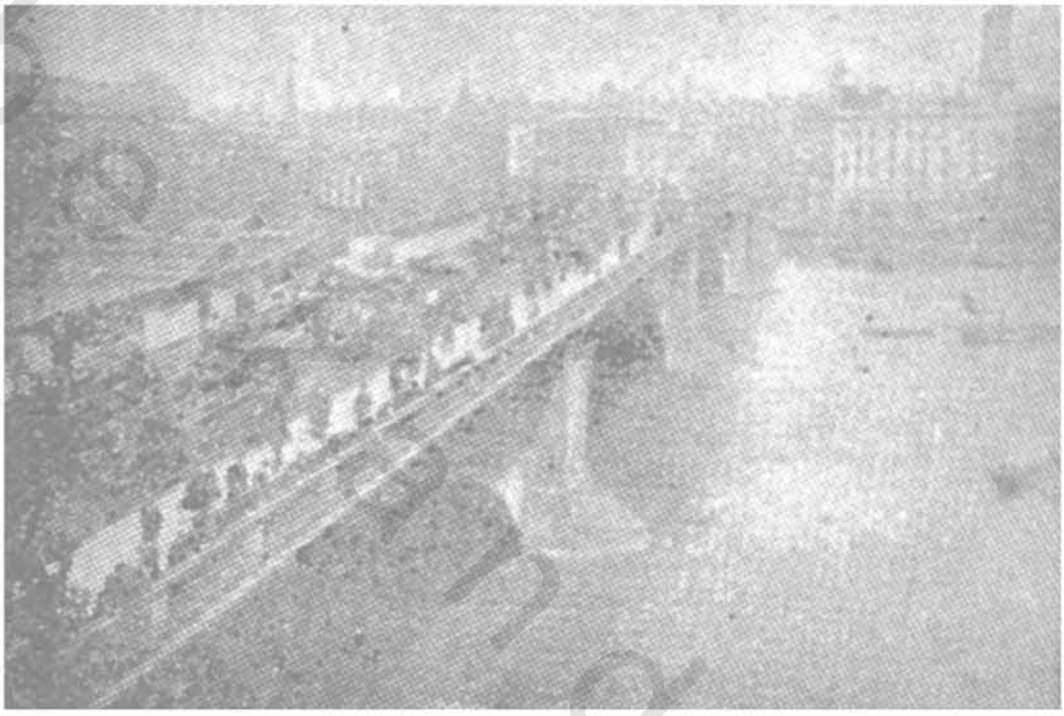

الأولى رغم إن الجو كان لا يزال باردا والفصل شتاء. وصلت الشاطىء الفرنسى من البوغاز ولم يكن أيضاً فى هذه المرة كاليه بل كان ميناء ديبب وهى كلها عدة موانى صغيرة تقع على جانى البوغاز.

وحدث عند وصولى إلى الميناء وذهابى لركوب القطار الذى يوصلنى إلى باريس أن استوقفنى بوليس الميناء وفحص جواز سفرى الذى أحمله فى جيبى مع تذكرة السفر.

حادث تأشيرة المرور

ولم يجد به تأشيرة المرور عن طريق فرنسا خلال العودة ولم أكن أفهم نظام التأشيرة من قبل وكنت قد ذهبت إلى دار السفاوه المصريه بلندن المسماه بيوت هاوس واستفسرت منهم عن صحة العودة بجواز السفر الذى معى إلى مصر و بعد الاطلاع عليه عاد الحاجب يخبرنى بأنه صحيح لاينقصه شيء وعلى كل حال فقد تم اجراء التأشيره اللازمة و بعد الاستيلاء على قطعة من النقود الفضيه الانجليزيه تعادل قيمتها ثلاثه اضعافا القيمه المطلوبة بالفرنكات لعدم وجود نقود فرنسيه معى أو صراف لتغيير العمله فى تلك الساعة وفى استعجالى لأجل ركوب القطار الذى لم يبق على تحركه الا بضع دقائق ماكدت اخطو بعد ذلك بضع خطوات حتى انفك قفل الحقيبه فجأه بعد اتمام فحصها ويظهر انها لم تكن مقفله تماما بسبب السرعه . وسقطت امتعتى وتبعثرت فى الطريق ساعدنى بعض الواقفين وخصوصا جماعة البوليس الذين اعتنوا منى على المبلغ المذكور . وفى النهايه أمكنى جمع ماوقع وتبعثر ثم أعدت قفل الحقيبه وحملتها وصعدت سلم القطار بمساعدة الواقفين بسلام .

العودة إلى باريس

تحرك القطار فى طريقه إلى باريس حيث وصلها فى ساعة مبكرة من الصباح

وصل القطار إلى محطة جاردنور ثانية وهى التى سبق ذكرها والتحدث عنها.

خرجت توا من المحطة حيث أستطعت التعرف على فندق قريب من المحطة كان أسمه فندق دى لاجار حيث وضعت امتعتى فيه وكان أجره مناسبا

لم أعد اشعر بالوحدة ولا بالضيق الذى كنت شعر على الاسفار والاقامة فى الفنادق رغم أنى كنت لا أجيد التفاهم بالفرنسية والاتصال باهل باريس. فقد استطعت أن أفرج عن نفسى بعض الشىء واجوب بعض شوارعها وميادينها القريبة واستعمل بعض طرق المواصلات فيها.

وبالجملة فقد سررت منها هذه المرة وأعجبت بها ايما الاعجاب وان كنت لم يدر بخلدى أننى سوف أقضى زهرة عمرى وأعز أيام شبابى وحياتى

جوله أخيره فى باريس

لم أتعرف على معظم ما بها كما فعلت بلندن بسبب اجادتى هناك اللغة الانجليزية واعتيادى شيئا فشيئا على فهم اللغة العامية الدارجة المستعملة فى انجلترا فلكل بلد تقريبا لغة عامية سهلة يستخدمونها فى التخاطب فيما بينهم بدل اللغة الفصحى الخاصه بالمعاهد وكتابة الرسائل والمؤلفات العلمية وغيرها . كما هو الحال فى فرنسا وكمثل اللغة العامية عندنا وهى غير اللغة العربية الفصحى .

لم أطل اقامتى فى باريس أيضا فقد كنت مقيدا بموعد سفر الباخرة من مرسيليا فى اليوم المحدد فما كاد يحين الوقت حتى حملت حقيبتى فى يدى وغادرت الفندق بعد دفع الحساب وأخذت طريقى تواً الى محطة المترو القريبة من الفندق بعد أن تعود على استعماله طول مدة أقامتى فى باريس هذه المرة ركبت المترو حيث أوصلنى بعد وقت قصير إلى محطة جارد ليون ومن هناك أخذت طريقى إلى رصيف القطار بالاستفسار ودون احتياج الى حمال او غيره ومؤتمر احالة الدولى سكيون من بين أغراضه الاعتراف مبدئيا بوجود إله واحد .

العودة الى مرسيليا

ركبت قطار المساء من محطة جاردى ليون قاصدا مرسيليا حيث وصلتها فى الصباح بعد قضاء الليل كله فى القطار وكان مزدحما جدا وعند الظهر وبعد قضاء بضع ساعات فى المدينة ركبت الباخرة الفرنسية لا باترى وهى أحدى بواخر شركة المساجيرى وأن كانت أقل حجما وحمولة من باخرتنا السابقة أنجور .

وبعد اتمام الاجراءات اللازمة وحوالى الساعة الثانية بعد الظهر أو أكثر بقليل تحركت الباخرة فى طريقها الى الاسكندرية .

حيث وصلتها بعد رحلة ممتعة تقابلت وتعرفت خلالها بالكثيرين من أجانب ومصريين وعودت نفسى خلالها على الجلوس الى موائد الطعام وطلب ما تشتهيه نفسى دون حياء وسط أولئك الاجانب المتعجرفين وأخذت اجول فى الباخرة وارتاد كل عنابرها ودرجاتها تارة بمفردى وطورا مع بعض الأصدقاء

حتى لاحت لنا من بعيد ثم عن قرب ميناء الاسكندرية مرة ثانية لاتنسى مشروع الجامعة لتسير الثقافة العليا الجامعية فى مصر وحول العالم ولنشر الثقافة والدعوة الاسلامية ولمحاربة التبشير والالحاد والمبادىء الهدامة .

العودة إلى الاسكندريه

وصلت الباخرة الى ميناء الاسكندريه والقت مراسيها بها حوالى التاسعه صباحاً وفى نفس المكان والرصيف الذى غادرت منه أرض الوطن وشهدت جموع الزائرين والمستقبلين يتزاحمون فى الطريق وعلى الرصيف كانت كلها نفس الحركه والضجه والهرج والمرج والصراع والتدافع والصياح والهتاف الذى شهدته من قبل ولكن هذه المره وأنا فى طريقى إلى أرض الوطن .

ركبت القطار من محطة الاسكندريه فى طريقى عائدا إلى مصر بعد ان طفت المدينه قليلا وشهدت بعض شوارعها الكبرى . وميادينها الواسعة .

وصلت محطة القاهرة وقد قدر لى أن أعود فأراها مرة أخرى وكما هى لم تتغير ولم تتبدل وبكل مافيها من ضجيج وثورة وحركه وحمالين وباعه متجولين وغيرهم ركبت الترام قاصدا منزلنا واخيرا وصلت المنزل وفى يدى اليمنى حقيبتى وفى اليسرى

قبعتى ومعطفى على كتفى وأن كان معطفا جديدا وكانت نفس القبعه التى أشتريتها وكادت تفقد منى فى محطه لندن لولا يقظة زميلى . دخلت المنزل وصعدت الى شقتنا حيث تلقتنى واستقبلتنى الأسرة بالفرح والسرور وبذلك انتهت رحلتنا الأولى

وتليها رحلتنا الثانيه إن شاء الله

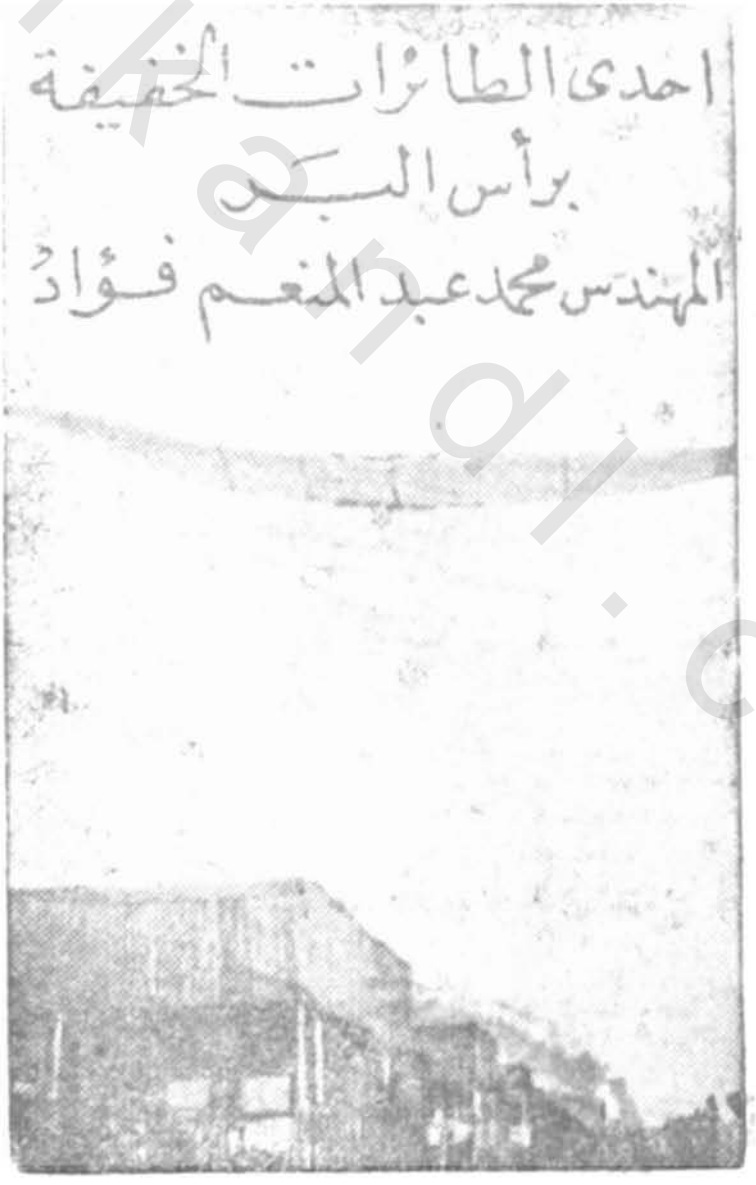

obeikandl.com